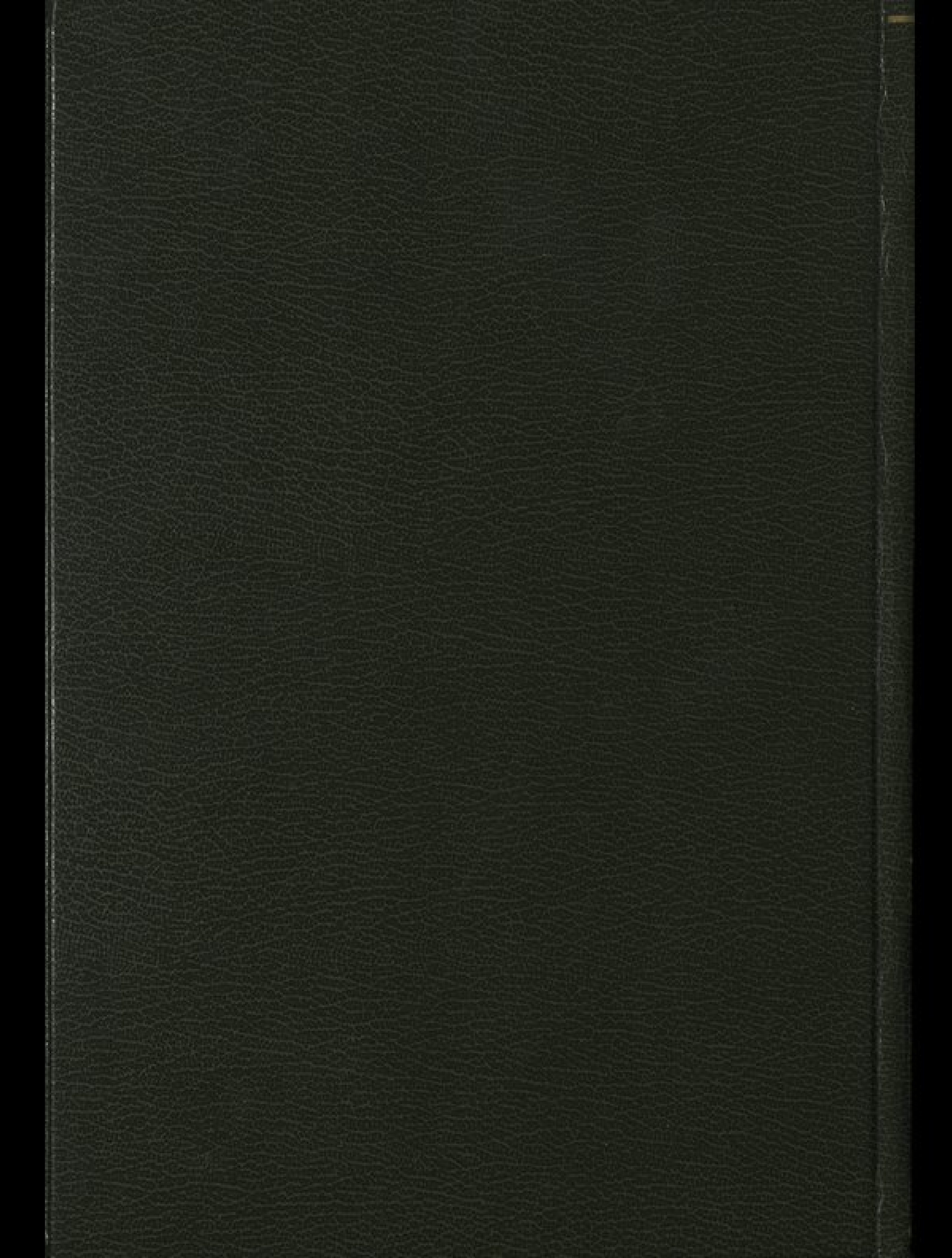
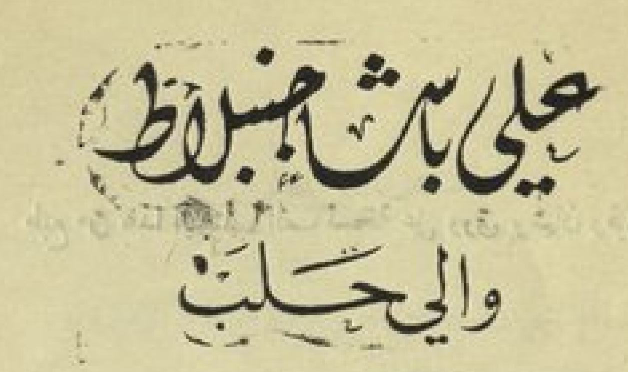


من منشورات « دار المكشوف »

الصبي الاعرج (نقد)	توفيق يوسف عواد
عشر قصص (نقد)	خليل تقي الدين
قميص الصوف	توفيق يوسف عواد
عمر افندي	لطفي حيدر
كان ما كان	ميخائيل نعيمه
ليلة القدر	احمد مكي
العراق بين انقلابين	عبد الفتاح ابو النصر اليافي
ارجوحة القمر (شعر)	صلاح لبكي
على المنبر (الجزء الاول)	الدكتور نقولا فياض
الاشتراكية العملية	ابراهيم حداد
خطيئة الشيخ	رشاد المغربي
الباب المرصود	عمر فاخوري
افاعي الفردوس (شعر)	الياس ابو شبكه
وهل يخفى القمر ؟	رئيف خوري
يوميات ميشال سرور	ميشال اسمر
الرغيف	توفيق يوسف عواد

علي باشا جنبلاط



علي باشا جنبلاط والي حلب

١٦٠٥ — ١٦١١

بقلم

الخوري بولس قرألي

مدير المجلة البطريركية

منشورات دار المكشوف

بيروت ● ١٩٣٩

طبع من هذا الكتاب الف نسخة على ورق برشمان رقيق

اصطلاحات مختصرة

مد ٥ السجل المديشي رقم ٤٢٧٥ من خزانة فلورنسا الاميرية .

مد ٧ „ „ „ ٤٢٧٧ „ „ „ „ „ „

فط كتابنا فخر الدين المعني الثاني ودولة تسكانا الجزء الاول بالايطالية .

فع „ „ „ „ „ „ „ „ الجزء الثاني بالعربية .

د تاريخ الطائفة المارونية للبطريرك اسطفان الدويهي، المطبعة الكاثوليكية ١٨٩٨ .

ج جزء .

ص صفحة .

و ورقة .

ق قفا الورقة .

رص راجع صفحة كذا من هذا الكتاب .

كلمة للناشر

في خريف السنة ١٩٣٣ ، بينما كنا نقلب بلف الوثائق الخاصة بالامير فخرالدين المعني الثاني ، الراقدة منذ ثلاثة قرون في بطون السجلات المديشية بفلورنسا، اذا بجانب شخصية الامير الخالدة تتجلى شخصية حليفة علي باشا جنبلاط ، العامل معه في حقل الوطنية بهمة الشباب وحماسته، وحكمة الشيوخ وحنكتهم ، وحزم قواد الجيوش وهيبتهم ، وحدة نظر كبار الساسة وبعد مراميهم . وكنا كلما تقدمنا في البحث والتنقيب برزت من ظلمة الغيب وظل الماضي ملامح هذه الشخصية الممتازة ، وشقت لها طريقاً الى عالم النور والحقيقة والتاريخ . حتى بهرت اعيننا اعجابا ، وانتعش قلبنا فخراً بوطنية هذا المواطن الصادقة السامية .

ولما رأينا ان الوثائق الراجعة الى اعمال هذين الرجلين العظيمين يسند بعضها بعضاً ، كما كانا يتساندان في الحياة، ضممناها سوية في كتابنا « فخر الدين ودولة تسكانا » ورتبناها حسب وقائعها التاريخية ، فاربى الكتاب على سبعمئة وخمسين صفحة . بيد ان الوهم داخلنا من تضخمه ، ومن خروجنا احياناً عن الحدود التي رسمناها له ، الواقفة عند درس علاقات الامير فخر الدين بدولة تسكانا . وخشينا ان يتسرب هذا الوهم الى اعضاء مجمع العلوم والفنون الملكي الايطالي ، الذين وعدونا بتحمل نفقات نشره ، وان يأخذوا علينا هذا التضخم وذاك الخروج .

فعمدنا الى الكتاب وسلخنا من صلبه المساند الخاصة بعلي باشا وحده ، ورتبناها على حدة ، على ان ننشرها في اول فرصة سانحة . فجاءت سفراً نفيساً بجوهره ، وان

صغيراً بحجمه ، وصفحة لا تقل جمالا ومجداً عما كتبه الامير فخر الدين بمآتيه العظيمة . انما كانت حياة علي باشا القصيرة شعلة لهيب لمعت كالبرق ، وملأ شعاعها الشرق ، وامتد حتى الغرب . ولم يطل بها الامر ان خمد اجيجها ، وانكمشت اشعتها وانطفأت انوارها ، وباتت برهة بصيصا تحت الرماد ثم تلاشت . بيد ان ذكرى لمعانها لم تتلاش .

واهم هذه الوثائق مطوية في السجل الموسوم برقم ٤٢٧٥ بين سجلات آل مديتشي عواهل تسكانا ، المحفوظة في خزانة فلورنسا الاميرية (١ . وبعضها مثبت في السجل ٤٢٧٧ من المجموعة نفسها . وكلها باللغة الايطالية ، ما خلا كتاب البابا بولس الخامس الى علي باشا ، الموضوع باللاتينية ، وكتاب علي باشا الى فردناندو الاول ، غراندوق تسكانا ، المكتوب بالتركية ، وكتاب ليونسيني اليه بالفرنسوية . فعربنا اهمها بما امكن من الدقة ، ولخصنا البقية .

واخذنا عن المحبي(٢ ترجمة حسين باشا جانبولاذ ، لنتعرف الى اسرته والى الاسباب التي آلت الى مصرعه . وما كان من ثورة علي باشا ابن اخيه على الامبراطورية العثمانية للاخذ بالثأر وسلخ سورية والاناضول الجنوبي عنها .

ونجد في ختام هذه الوثائق تقريرين عن النكبة التي اصابت مدينة حلب لما نكب واليها . وكانت قد نازعت دمشق مركزها الاداري ، كما نزعت منها مركزها التجاري . فالى قراء العربية هذه التحفة التاريخية .

زغرتا في ٥ ايلول ١٩٣٨

الخوري بولس قرألي

---

١) راجع وصفها في فط ٩-١١ وفع ٧-٨ .

٢) محمد المحبي . خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر . المطبعة المصرية الوهبية بالقاهرة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) .

الفصل الاول

ثورة علي باشا

١ ــ اوروبا والدولة العثمانية . كان القرن السادس عشر يلفظ انفاسه الاخيرة ، والامبراطورية العثمانية قابضة بيديها الجبارتين على الشرق الادنى ، وقسم كبير من اوروبا الشرقية . واذا بالشعوب الواقعة تحت نيرها تتململ وتحاول التخلص منه . وما هي هنيهة حتى عادت ثورة العجم الى الاشتعال ، وتجاوب وميضها في الغرب فتنبه لها وتحفز . وانتفضت الشعوب البلقانية واليونانيـة وانتفضت ، واندلعت السن اللهيب في صرح الامبراطورية العثمانية ، وصعد دخانها بين شقوقه ، فتصدع .

اولا . العصيان على الدولة ــ اعلنت هنغاريا العصيان ولحقتها البانيـا والبوسنه وترانسيلفانيـا والفلاخ من امم البلقان ، وجيورجيا ومقدونية من شعوب اليونان . وكان لثورة العجم هزة عنيفة في الشرق العربي ، في اماراته وفي ولاياته . فشق عصا الطاعـة حسين باشا في الحبشة ، والعرب في اليمن ، واباظـه باشـا في بغداد ، وابن القلندر في الاناضول ، وعلي باشا جنبلاط في حلب ، والامير فخر الدين المعني في لبنان .

وتحولت افكار الامراء المسيحيين في اوروبا لتخليص الاراضي المقدسة ، واخوانهم الشرقيين ، وهاجت اطماعهم في الفتح والارباح التجارية . فسعوا للاتصال بالعصاة ، وامدادهم بالاسلحة والذخائر والخبراء والاساطيل ، وتوحيد قواهم على الدولة العثمانية

للانفلات من قبضتها الحديدية . وان ساعدهم الحظ لتحطيمها .

في السنة ١٥٧٠ انتزع الاتراك من يد الجمهورية البندقية جزيرة قبرس ، آخر معقل للمسيحيين في الشرق الادنى ، وامعنوا فيها نهباً وذبحاً ، حتى بلغت القتلى على قول بعضهم ، خمسة وعشرين الفاً ، بينهم عدد يذكر من موارنة لبنان ، الذين نزحوا اليها بعد نكبة كسروان في السنة ١٣٠٧(١ ،فانكشفت سواحل اوربا المسيحية امام العمارة العثمانية . احس البابا بيوس الخامس بالخطر ، فستصرخ الامراء المسيحيين واستنهض هممهم وضم اساطيلهم ، فنازلت العمارة العثمانية في السنة ١٥٧١ على سواحل ليبانتو اليونانية وكسرتها . وكان يُظن انها الضربة القاضية عليها .

بيد ان الحلف المسيحي لم يعتم ان تفكك . كانت فرنسا وقعت منذ السنة ١٥٣٦ مع الدولة العثمانية معاهدة تجارية ، رمت بها الى انتزاع تجارة البحر الابيض من الجمهورية البندقية محتكرتها . ولما خسرت البندقية جزيرة قبرس خافت ان تخسر معها مركزها التجاري في البحر الابيض ، فعقدت سراً مع الباب العالي في ٧ آذار ١٥٧٣ اتفاقاً تخلت فيه نهائياً عن حقوقها في هذه الجزيرة ، وعن فتوحاتها الحديثة في سواحل البانيا ، وتعهدت له بغرامة حربية قدرها ثلثمائة الف سكوت . فانسلخت عن الحلف المسيحي ، وكانها خسرت معركة ليبانتو .

وكان بيوس الخامس قد انتقل الى حضن مولاه في السنة ١٥٧٢ وخلفه غريغوريوس الثالث عشر ، الذي شاهد بمرارة هذا التراجع . بيد انه لم يقنط . بل عاد فجمع على الدولة العثمانية كلمة بقية اعضاء «الحلف الكبير» : اسبانيا وتسكانا وجنوفا ومالطه والفمتيه «الحلف الصغير»(٢ .ومد يده الى الطوائف المسيحية في الشرق

---

١) راجع كتابنا «حروب المقدمين» ص ٨٥-٩٦ ومجلتنا البطريركية ٧ : ٣٢٥-٣٢٨ و ٤٠١ - ٤٠٨ .

٢) La Piccola Lega

فاسس سنة ١٥٨٤ في رومية مدرسة لليونان، وفتح فيها مدارس للموارنة (١ ، والاحباش والارمن . واوفد القصاد الى الطوائف المنشقة ليضمها الى الكرسي الرسولي . وجهز الوفود السياسية الى ملكي الحبشة والعجم (٢ .

ثانياً . البعثة الفارسية — وكان الكردينال فردناندو مديشي يده اليمنى في هذه المشاريع السياسية والدينية . فتولى شؤون الموارنة والاقباط لدى الكرسي الرسولي ، وقام بنفقات بعثتي الحبشة والعجم . واسس في رومية مطبعة شرقية ، اشتهرت بالمطبعة المديشية ، نشرت الانجيل العربي وكتاب القداس الماروني بحروف جميلة ورسوم بديعة ، وغيرهما من الكتب ، لفائدة الشرقيين والمستشرقين (٣ .

ولما توفي اخوه فرنسيس غراندوق تسكانا بلا عقب ، رأى ان يتبوأ عرش اجداده مكانه ، فينفسح له المجال للعمل في مشاريعه الشرقية . ولما لم يكن قد تقدم بعد الى الدرجات الكهنوتية خلع الارجوان الكردينالي وتزوج في السنة ١٥٨٧ ماريا كريستينا بنت دوق لورينا (٤ ، التي اصبحت من اكبر العاطفين على الامير فخر الدين لما لجأ في السنة ١٦١٣ الى قزما الثاني ولدها .

اما اعضاء البعثة الحبشية فماتوا كلهم . ولم يعد من وفد العجم غير واحد . بيد ان الغراندوق فردناندو الاول ساعد المدعو انطون شرلي الانكليزي (٥ على مواصلة

---

١) راجع مجموعة البراءات للعنيسي ص ٩٠ .

٢) راجع تاريخ البابوات لباستور :

Pastor Storia dei Papi IX, 239, 255

٣) راجع باستور مجلد ٩ ص ٢٦٨ وشنورر في مكتبته العربية ص ٣٤٣ :

Shnurrer : Bibliotheca arabica

٤) Maria Cristina, Granduchessa di Toscana

٥) Antonio Sherley

السعي لدى شاه العجم ، ليعلن الثورة على الدولة العثمانية ، مستنداً الى محالفة الامراء المسيحيين . فتم له ذلك وعين الشاه بعثة من وجهاء مملكته تقصد الى اوربا برئاسة شرلي المذكور لعقد المحالفات مع امرائها .

واوفد شرلي امامه المدعو انجيلو او ميكالانجلو قريع الحلبي(١ ليمهد الطريق للبعثة الفاوسية . وزوده كتابا مؤرخا في ٢٤ ايار ١٥٩٩ ، يوصي به الغراندوق فردناندو الاول ويشكر له افضاله السابقة عليه ويبشره بنجاح مهمته لدى شاه العجم ، وبقرب مجيئه الى اوربا على رأس الوفد الفارسي ليحالف الامراء المسيحيين على الدولة العثمانية .

وصل ميخائيل قريع الى تسكانا في كانون الاول من السنة ١٥٩٩ عينها بصفة ترجمان البعثة ووكيل شرلي رئيسها. وقد وجدنا له في بيان المجموعة الستروتسيانية(٢ ، المحفوظة في خزانة الاوراق الاميرية بفلورنسا ، ترجمة ثلاث وثائق الى الايطالية لقب فيها بالفارس والامثل ، ترجمان ملك العجم»(٣ .

وصلت البعثة الفاوسية برئاسة شرلي الى اوربا ، مؤلفة من زهاء ثلاثين وجيهاً . ويظهر انها قصدت اولا الى امبراطور النمسا . لان الوثائق الثلاث المشار اليها قد ترجمها قريع في « براغا » . ثم عرجت على تسكانا ، فقابلت الغراندوق فردناندو الاول . وتابعت مسيرها حتى روميه . وكانت حاملة كتباً من الشاه عباس الى امراء

---

١) Michelangelo Corai اي الملاك ميخائيل . وقد وقع اسمه في ذيل معاهدة فردناندو الاول مع علي باشا جنبلاط « فضلي بن يوحنا قوريع » . ولعله بدل اسمه فضلله اوباسيلي باسم انجيلو او ميكالانجيلو. وسندعوه في سياق هذا الكتاب باسم ميخائيل .

٢) Strozziana وقد نشر بيانها تحت اسم Inventario Strozzi

٣) Il Magnifico cavaliere Angelo Corai, interprete del Rè di Persia

الغرب ، منهـا كتاب قدمه الى اكليمنضوس الثامن « حسين علي بيك احد سفراء شاه العجم ، الذي دخـل روميه في نيسان ١٦٠١ » . وبين هـذه الكتب رسالة بالارمنية وجهها الشاه الى ملك اسبانيا (١ .

وبعد مرور هذا الوفد نرى الغراندوق فردناندو ناشطاً للعمل في البحر الابيض فيحاول في السنة ١٦٠٢ ان يحل عمـلاءه في طرابلس اللبنانية ، ليفتح فيهـا سوقاً للمنتوجات التـسكانية . وفي السنة ١٦٠٥ اشار عليه احد البنادقة ، المدعو روفائيل كاتشياماري ، بمحالفة فخر الدين ، مؤكداً له ان صداقته مفتاح سورية والقدس وقبرس ، التي كان يطمح اليها (٢ .وفي السنة ١٦٠٦ ، بعد ان جاهر علي باشا جنبلاط بالعصيان على الدولة العثمانية واغتصب ولاية حلب ، ارسل الغراندوق اسطوله لاحتلال ميناء آياس شمال سورية ، وموقعين آخرين في الاناضول . ولم يلبث ان اتصل بفخر الدين وحليفه علي باشا جنبلاط وملك العجم ، واوفد اليهم ميخـائيل قريع المذكور اعلاه سفيراً ليضمهم اليه على الدولة العثمانية . وامر اسطوله باحتلال جزيرة قبرس (٣.

ثالثاً . ميخائيل قريع ــ روى الدويهي (٤ « في سنة ١٥٧٤ حدث في جبة بشري خصومة بين القريعية والبشرانية . فقتل القريعيـة منهم اثنين عند العـين التي تحت بقاع كفره . فقدمت الشكاية الى غزير بسبب القتلى . اما الامير منصور العساف فنزل القريعية بايعاز ابي منصور بن حبيش عن ولاية الجبة . وسلمهـا الى المقدم مقلد بن الياس . وكان شريكه الشدياق يوسف ابورعد المسمى خاطر » .

واكبر الظن ان القريعية هاجروا الى حلب بعد هذا الحادث مع من هـاجر اليها من اسر لبنان الشمالي . واعتنق بعضهم المذهب اليعقوبي . في العريضة التي وجهها

١) Inventario Strozzi I 97

٢) فع ١٦٠ – ١٦٢ .

٣) فع ١٤٧ .

٤) د ١٧٤ .

موارنة حلب سنة ١٦٣٤ الى مجمع انتشار الايمان برومية ، ليعين عليهم اسقفاً يضم شملهم ويسوسهم ، لأنحة بالاسر المارونية، التي انضمت الى اليعاقبة، بينها اسم «ميخايل ابن قريع وابنه يوسف واهل بيوتهم»(١ . ولما كان اسم قريع قد ورد ايضاً بين الاسر السريانية الكاثوليكية في حلب ، جاز لنا الظن ان قسما من هذه الاسرة عاد الى الكثلكة . ففي السنة ١٥٨٦ ارسل المدعو منصور صفر قوريع ، امين جمرك حلب ، الى البابا غريغوريوس الثالث عشر ، على يد المطران ليوناردو ابيلا ، قاصده الى الطوائف المسيحية ، عريضة اعلن فيها انضمامه الى الكثلكة . فكافأه الحبر الاعظم بلقب «كونت روماني» (٢ . وناسخ المخطوط ١١،١٧ من مكتبة دير الشرفه للسريان الكاثوليك بكسروان (غوسطا) وقع اسمه «معتوق ابن خواجا ناصر ابن خواجا ابرهيمشا المعروف ببيت الاقريع . وكتب في كنيسة السيدة (بحلب) (٣ .» ولعلنا غير راكبين الشطط اذا استنتجنا مما مر ان القريعية من موارنة لبنان الشمالي ، نزحوا الى حلب في اواخر القرن السادس عشر ، وتمذهب بعضهم باليعقوبية . وعاد منهم البعض الى الكثلكة . واطلق عليهم لقب ابراهيمشا ، المعروف بهم حتى الآن . والله اعلم .

على أن ما وثقنا من معرفته عن ميخائيل قريع ، استناداً الى الوثائق المدنية ، انه خدم سبع سنين سنان باشا بن جغاله القائد العثماني(٤ ، بوظيفة كاتب ، ثم التحق بخدمة دوق مانتوفا في هنغاريا . وفي السنة ١٥٩٩ قصد الى ايطاليا وكيلا من انطون

---

١) Archivio di Prop. F. Lettere in diverse lingue ,cod. 180 f. 181

٢) طرازي . السلاسل الذهبية ص ١٧٥ .

٣) الخورفسقفوس اسحق ارمله : الطرفه في مخطوطات الشرفه، ص ٢٢٠ .

٤) Cigala الايطالي الاصل . قاتل حسين باشا جنبلاط عم علي باشا كما سيأتي شرحه .

شرلي سفير شاه العجم ، وترجماناً للبعثة الفارسية كما مر بك القول . وانه « مولود في حلب ، حيث ترك والده وزوجته . وبما انه خدم دوق مانتوفا استحالت عليه العودة الى وطنه(١ » . وسنرى انه عاد الى حلب في السنة ١٦٠٧ سفيراً للغراندوق فردناندو الاول ونال من علي باشا جنبلاط ولاية الجرك . وكان له في بغداد شقيق ذو بأس ومكانة .

اما الداعي الذي حمل علي باشا جنبلاط على شق عصا الطاعة على الدولة العثمانية، وحدا غراندوق تسكانا الى الاتصال به وبحليفه فخر الدين ، فاليك تفصيله :

٢ ــ **مقتل حسين باشا** . روى المحبي في ترجمة حسين باشا جانبولاذ (٢ ما يلي :

[٨٤] « حسين باشا جانبولاذ الكردي امير الامراء بحلب ، كان في ابتداء امره من المتفرقة . ثم تولى امارة كلس منصب والده . وعزله عنه اخوه الامير حبيب . وثبت العداوة بينهما . ثم استمرا يتعازلان فتولى ديو سليمان كلس فاحتاج الى جمع السكبانية . وكان ابتداء كثرتهم وظهور قوانينهم من عبد الحليم اليازجي احد اتباع المسطور . ولما سجن صاحب الترجمة بحلب وبيعت جميع اسبابه وعقاراته بابخس الاثمان لمال سلطاني كان عليه تولى كلس بعد ذلك وصمم على الامتناع عن تسليمها ان عزله احد . فكان اذا عزل من جانب السلطنة سعى في العود من غير تسليم المتولي [٨٥] الجديد . فعلم اكابر الدولة انهم اذا صمموا على عزله شق العصا فتركوه وارتضوا بالمال . فكثرت اجناده وامواله . وكان له مروءة وفتوة ومحبة للعلماء والصالحين الا انه كان ظالماً لاحتياجه الى علوفات السكبانية . وكان له فضيلة في علم الفلك والزايرجاد

---

١) ــ مد ٥ و ٣ و ٤ .

٢) ــ المحبي ٢ : ٨٤-٨٧ .

والتقويمات والرمل . وصرف اكثر عمره في ذلك . ولما توجه محمد باشا الوزير ابن سنان باشا الاعظم سرداراً على حسين باشا امير لواء الحبشة . وكان خرج عن الطاعة وشق العصا ..، فتوجه صاحب الترجمة لحربه صحبة السردار . فقدم الى كلس خارجي من السكبانية يقال له رستم ومعه من البغاة اجناد كثيرة ... فنهب كلس وصادر اعيان اهل القرى . ولما تولى نصوح باشا كفالة حلب وكان عساكر دمشق تغلبوا على حلب ونواحيها وامره السلطان احمد باخراجهم وعجز عن ذلك فاستعان بصاحب الترجمة ، فبعث ابن اخيه الامير علي بعسكر عظيم فاصبح نصوح باشا وقد اخذ القلعة ووضع متاريس تحت قلعة حلب واستعدت جماعته فكانوا نحو ستمائة . فاخذت العساكر الدمشقية باب بانقوسا واستعدوا وجمعوا عساكرهم نحو الالفين وهم لا يعلمون ان صاحب الترجمة بعث عساكر . فاحضر نصوح باشا اليه كتمان سردار الدمشقيين واخبره ان السلطان رفعهم من الاستخدام وامر باخراجهم من حلب بعيالهم فامتنعوا . ثم تواردت الاخبار ان الامير علي بن جانبولاذ وصل الى قرية حيلان بعساكر لا تحصى فخرجوا في الظلام ولم يبق منهم احد . وفي اليوم الثاني دخل الامير علي بالعساكر المتكاثفة . فتبعهم نصوح باشا ومعه الامير علي الى قرية كفرطاب فوقع بينهم محاربة فانهزم الدمشقيون بعد ما قتل منهم جم غفير . فصادر نصوح باشا اقاربهم واتباعهم . وفعل حسين باشا مع نصوح باشا هذا الفعل فاخذ نصوح باشا يتكلم بين الناس انه يريد قتل حسين باشا . فسمع الخبر فاخذ في جمع العساكر وبعث جماعة الى السردار سنان باشا بن جغاله الذي ارسله السلطان لقتال الشاه . فبلغ ذلك نصوح باشا فاشتدت [٨٦] عداوته فعزم على المفاجأة بالقتال لكون كلس قريبة من حلب . فخرج في عساكره مجداً حتى وصلها في يوم واحد . فقابله حسين باشا بعسكره والتقت الفئتان فانكسر نصوح باشا وقتل اكثر عسكره ودخل حلب منهزماً. ثم في اليوم الثاني اخذ في جمع الاجناد وبذل الاموال لتكثير العدد والاعداد ظناً منه ان صبح سعده اسفر . ثم جاء رسول من السردار سنان باشا جغاله يخبره بالاوامر

السردارية انه قد صار حسين باشا كافل الممالك الحلبية وعزل نصوح باشا منها، فلبس نصوح باشا جلد النمر وامتنع عن تسليم حلب لحسين باشا ...[٨٧] فما مضى اسبوع الا وقد اقبلت عساكر حسين باشا بمجموعها الى قرية حيلان ، فاستقبلهم نصوح باشا بالحرب فانكسر ثانياً ...[٨٨] واستولى حسين باشا على الديار الحلبية وشحنها من السكبان وصادر الاغنياء والفقراء لاجل علوفة السكبان ، ثم امر سنان باشا حسين باشا بالتوجه اليه لقتال الشاه فقدم رجلا واخر اخرى وتثاقل من السفر حتى حصلت الكسرة ببلاد العجم للعساكر العثمانية في وقعة مشهورة قتل فيها جماعة من الامراء وكانت في سادس عشر من جمادى الآخرة سنة اربع عشرة والف(١ . فلما رجع الوزير سنان باشا ابن جغاله (٢ ادركه حسين باشا في رجعته بمدينة وان فقتله لتأخره في السنة المذكورة . وكان يريد جعل ابن اخيه الامير علياً قائمقامه بحلب . فلما بلغه قتل عمه تملك حلب وخرج بها على السلطنة . وتولدت من ذلك فتن عظيمة ...»

٣ — **عصيان علي باشا جنبلاط** . قال المحبي في ترجمته (٣ :

[١٣٥] « الامير علي بن احمد بن جانبولاذ بن قاسم الكردي القصيري . قد اكثر

---

١) تشرين الثاني ١٦٠٥ .

٢) هو ابن شيبيون جغاله Scipione Cigala من مدينة مسينا في صقلية ، وقيل من جنوفا في ايطاليا الشمالية . وقع سنة ١٥٦١ مع ابيه ووالدته في اسر الاتراك وتربى في سراي السلطان. ثم جحد النصرانية واصبح آغا الانكشارية (مد ٧ و١٩٧) ثم تعين سرداراً على العجم فاندحر ، كما سيأتي شرحه . وفي احدى الروايات (جريدة المساجيرو برومية عدد ٢٧ ك ٢ ١٩٣٥ (Ermanno Ponti. Messaggero Romano انه حاول تسنم عرش السلطنة ففشل .

٣) ٣ : ١٣٥ - ١٤٠ .

اهل التاريخ والمجاميع ممن لحقوا واقعته من ذكره وذكر ما فعله بدمشق وما جرى لحكام الشام واهلها معه من الوقائع . وقد اخترت من ذلك ما اودعته في هذه الاوراق من مبدأ امره الى منتهاه .

« واما ذكر اصله ومنتزعه فجده جانبولاذ هذا كان يعرف بابن عربوا وكان امير لواء بحلب . ولي حكومة المعرّة وكلس واعزاز . وكان له صيت [١٣٦] شائع وهمة علية .

اولا: معركة حماه — «ومبدأ الامير علي هذا انه كان في طليعة عمره ولي حكومة العزيزي . وقد تقدم في ترجمة عمه حسين باشا انه لما قتله الوزير ابن جغال لتراخيه في امر السفر الذي كان عين له ، خرج الامير علي عن طاعة السلطنة وجمع جمعاً عظيما من السكبانية حتى صار عنده منهم ما يزيد على عشرة آلاف ومنع المال المرتب عليه . وقتل ونهب في تلك الاطراف ودبر على قتل نائب حلب حسين باشا وكان ولاه السلطان نيابتها ووصل الى ادنه . وكان بادنه حاكم يعرف بجمشيد فكتب اليه ابن جانبولاذ ان يصنع له ضيافة ويقتله ففعل ونما خبره الى الاقطار واستمر في حلب يظهر الشقاق الى ان ارسل يوسف بن سيفا صاحب عكار الى باب السلطنة رسالة يطلب فيها ان يكون اميراً على عساكر الشام . والتزم بازالة الامير علي عن حلب. فجاء الامر على ما التزم . وارسل الى عسكر دمشق وامراء ضواحيها يطلبهم الى مجتمع العساكر وهو مدينة حماه . فتجمعوا هناك من كل ناحية . وجاء ابن جانبولاذ الى حماة وتلاقيا وتصادما . فما هو الا ان كان اجتماعهم بمقدار نحر جزور . فانكسر ابن سيفا واتباعه ورجع باربعة انفار . واستولى ابن جانبولاذ على مخيمه ومخيم عسكر الشام .

« ثم انه راسل الامير فخر الدين بن معن امير الشوف وبلاد صيدا واظهر له انه قريبه على بعد النسبة . فحضر اليه واجتمعا عند نبع العاصي وتشاوروا على ان يقصدا

طرابلس الشام لاجل الانتقام من ابن سيفا . فسار ابن سيفا في البحر واخلى لهم طرابلس وعكار ، وارسل اولاده وعياله الى دمشق . واجلس مملوكه يوسف في قلعة طرابلس فتحصن بها . وبعث ابن جانبولاذ الامير درويش بن حبيب بن جانبولاذ الى طرابلس فضبطها واستولى على غالب اموال من وجد هناك ، واستخرج دفائن كثيرة لاهلها ، ولم يستطع ان يملك قلعتها .

ثانياً : موقعة عراد — « وسار الامير علي ومعه ابن معن الى ناحية البقاع العزيزي من نواحي دمشق ومرّا على بعلبك وخربا ما امكن تخريبه منها . واستقرا في البقاع واظهرا انهما يريدان مقاتلة عسكر الشام . ولم تزل العساكر الشامية ترد الى دمشق حتى استقر في وادي دمشق الغربي ما يزيد على عشرة آلاف . وتزاحف العسكران حتى استقر ابن جانبولاذ وابن معن في نواحي العراد . وزحف العسكر الدمشقي الى مقابلتهما . وكان ابن سيفا وصل الى دمشق واظهر التمارض ولم يرحل مع العسكر الشامي واستمرت الرسل مترددة بين الفريقين ليصطلحا . فلم يقدر لهم الاصطلاح . وتزاحف الجيشان . فتوهم ابن جانبولاذ من صدمة العسكر الشامي . فشرع في تفخيذ اكابر العسكر عن الاتفاق واوقع بينهم . ثم انه ارسل الى طائفة من اكابرهم فوردوا عليه في مخيمه والبسهم الخلع وتوافقوا معه على انهم ينكسرون عند المقابلة . (١

« وكان في جانب ابن جانبولاذ ابن معن وابن الشهاب امير وادي التيم ويونس بن الحرفوش . فطابت نفسهم لملاقاة الشاميين وتقابل الفريقان في يوم السبت من اواسط جمادى الآخرة سنة خمس عشرة بعد الالف(٢ . ولم يقع قتال فاصل بين الفريقين ثم في صبيحة نهار الاحد وقف العسكر الشامي في المقابلة واقتتلا . فما مر مقدار جلسة خطيب الا وقد انفلّ العسكر الشامي . حتى قال ابن جانبولاذ « العسكر الشامي

---

١) نشك في هذا القول لتحيز المحبي الظاهر ضد كل من عصى السلطان خليفة المسلمين .
٢) ١٦ ت ١ ١٦٠٦ . اما الرحالة سانديس فيعين له اواسط ت ٢ (ص ٢١١) .

ما قاتلنا وانما قابلنا للسلام » ...

« فلما ولى عسكر دمشق زحف ابن جانبولاذ حتى نزل بقرية المزه ، وكان نزوله في الخيام. واما ابن معن فانه كان ضعيف الجسد في هاتيك الايام ، وكان نزوله في جامع المزه ، واصبحت ابواب البلدة يوم الاثنين مقفلة ، وقد خرج منها ابن سيفا وجماعته ليلا بعد ان اجتمع به قاضي القضاة بالشام المولى ابراهيم بن علي الازنيقي وحسن باشا الدفتري ولم يمكناه من الخروج حتى دفع اليهما مائة الف قرش ليفتدوا بها الشام من ابن جانبولاذ ، ثم خرج ومعه الامير موسى ابن الحرفوش ، ولما بلغ الامير ابن جانبولاذ خروجه غضب وقال أهل دمشق لو ارادوا السلامة ما مكنوا ابن سيفا من الخروج ، وهم يعرفون انني ما وردت بلادهم الا لاجله . ونادى عند ذلك السكبانية ان يذهبوا مع الدروز جماعة ابن معن لنهب دمشق . فوردت السكبانية والدروز افواجا الى خارج دمشق وشرعوا في نهب المحلات الخارجة ، فلما اشتد الكرب والحرب على المحلات وتلاحم القتال خاف العقلاء في دمشق فخرج جماعة الى ابن جانبولاذ وقالوا له ان ابن سيفا وضع لك عند قاضي الشام مائة الف قرش ، وتداركوا له خمسة وعشرين الف قرش اخرى كما وقع عليه معه الاتفاق من مال بعض الايتام التي كانت على طريق الامانة في قلعة دمشق ، وبعد ذلك اداها ايضاً ابن سيفا كالمائة الف . فلما تكلم الناس في الصلح طلب ابن جانبولاذ المال الذي وقع عليه الصلح على يد الدفتري وقال ان جاءني المال في هذا الوقت رحلت . فحولوا له مائة الف قرش وخمسة وعشرين ونادى في الرحيل عن المزه في اليوم الرابع من نزوله واستمر النهب في اطراف دمشق ثلاثة ايام متوالية . وكانوا يأخذون الاموال والاولاد الذكور ولم يتعرضوا للنساء [١٣٨] . ولما رحل ابن جانبولاذ ارتفع النهب عن المدينة . وفتحت ابواب المدينة في اليوم الرابع . فازدحم الناس على الخروج افواجا افواجا ودخل اليها من نهبت اسبابه من المحلات الخارجة . فكانوا لا يعرفون لتغير اسبابهم ووجوههم . وابتدأت العساكر

المحاربة تتراجع الى دمشق ولم يبالوا بما صدر منهم من الفضيحة .

« ولما فارق ابن جانبولاذ دمشق سار على طريق البقاع وفارق ابن معن هنـاك . ورحل الى ان وصل الى مقابلة حصن الاكراد واقام هنـاك . وارسل الى ابن سيفـا يطلب منه الصلح والمصاهرة فاجابه واعطاه ما يقرب من ثـلاث كرات من القروش وزوجه ابنته وتزوج منه اخته لابنه الامير حسين . ورحل ابن جانبولاذ من هنـاك الى جانب حلب . وجاءته الرسل من جانب السلطة تقبح عليه ما فعل بالشام فكان تارة ينكر فعلته وتارة يحيل الامر على عسكر الشام . وشرع يسد الطرقات ويقتـل من يعرف انه سائر الى طرف السلطنة لابلاغ ما صدر منه حتى اخاف الخلق . ونفذ حكمه من ادنه الى نواحي غزة . وكان ابن سيفا ممتثلا لامره غير تارك مداراة السلطنـة . واتفق معه على ان تكون حمص تحت حكم ابن سيفا وكانت حمـاة وما وراءها من الجـانب الشمالي الى ادنه في تعلق ابن جانبولاذ . وانقطعت احكام السلطنة عن البـلاد المذكورة نحو سنتين ووقعت الوحشة وانقطعت الطرقات . »

٤ ــ **سفارة قريبع** . وكان لفردنانـدو الاول وكلاء في الاستـانة وقبرس وسورية ولبنان وغيرهـا من البلدان التي كان يرنو اليهـا ، يطلعونه سراً على اهم مـا يجري فيها . وكان له اسطول ضخم ، يعد من اقوى الاساطيل واحدثها عدة ، يجوب عباب البحر الابيض ، ويسطو على سفن الدولة العثمانية من حربية وتجارية . ويباغت احياناً سواحلها بهجوم فجائي عنيف ، فيخرب ويسلب ويعود منها بالغنائم والاسرى . وهـذا كان شأن ملك اسبانيا وبقية دول « الحلف الصغير » . وكانت العمارة العثمانيـة تقابـل سفن هؤلاء بالمثل . بيد انها بعد كسرة ليبانتو لم تكن تجرؤ على الاقتراب من الشواطىء الاوربية . اما في البحر الابيض فالحرب كانت سجالا بينها وبين الدول المعادية لها .

وما بلغت الغراندوق اخبار مقتل حسين باشا وثورة ابن اخيه علي باشا وانتصاراته

مع حليفه فخر الدين على يوسف باشا سيفا ، سردار الجيش العثماني في سورية والاناضول، حتى اصدر اوامره الى ميخائيل قريع بالسفر حالا الى قبرس ولبنان وسورية وبلاد فارس لعقد المحالفات مع اووام الجزيرة وابن جنبلاط وفخر الدين وشاه العجم . وزوده التعليمات السرية التي يجب ان يتقيد بها .

اولا : بين جنبلاط ويوسف سيفا ـ واليك تعريب رسالة سرية وردت من الاستانة الى الغراندوق بتاريخ ٢٩ ايلول ١٦٠٦ :

« ما زال السلطان عاقداً النية على السفر الى آسيا . والاستعدادات هنا قائمة على قدم وساق ، ليتسنى لركابه ان يتحرك في الربيع القادم. وقد صدرت الاوامر الى نائبه في بلاد التتر ان يجهز الى تلك الجهات العدد الوفير من الرجال ، لينضموا الى الحملة حال وصولها . في مدة قصيرة شق عصا الطاعة كثير من الثوار ، بينهم ثائر في جهات دمشق ، يقود من خمسة عشر الى عشرين الف مقاتل ، وينزل بالاتراك الخسائر الجسيمة (١ .

« اما والي حلب المدعو علي ، ابن اخ زمبلاط ، الذي خنقه ابن جغاله ، فيواصل فتوحاته وانتصاراته ، بعد ان تغلب على الامير يوسف ، حاكم طرابلس ، وطرده من تلك البلاد . الامر الذي شجع بقية الثوار على التمادي في عصاوتهم . فهو رجل ذو اخلاق نبيلة وصفات ممتازة ، باسل ، مقدام ، سليل امراء سورية القدماء (٢ . دخل طرابلس بنظام وتعقل ، ولم يلحق بسكانها ادنى اذية . فخرج منها مكتسباً محبة اهلها وجيرانهم ، تلهج السنتهم بالثناء العاطر عليه .

« والامير يوسف المشار اليه ليس من نسل الامراء الاصيلين ، بيد انه ذو ثروة ضخمة . هرب من طرابلس على مراكب مسيحية ، ولجأ الى قبرس حاملا قسما

---

١) يعني فخر الدين .

٢) يعني الاكراد الذين حاربوا تحت لواء صلاح الدين الايوبي الكردي .

كبيراً من امواله ، تاركا البقية مع اولاده واعز نسائه في داخل الجبال على مقربة من طرابلس . لما وصلت اخبار انكساره الى هنا طابت لسماعها نفوس الكثيرين ، لانهم يعللون النفس بالقبض عليه والاستيلاء على ثروته . وقد اسرعوا فاوفدوا الى قبرس من يأتي به وباموااله ، اذا ساعدهم الحظ .

« نحن هنا بانتظار الصلح مع هنغاريا ، او الحرب . فان اشهرت الحرب قد يتعوق السلطان عن السفر الى آسيا. وكانت العمارة العثمانية تلقت الاوامر بالاقلاع الى طرابلس بيد انها عدلت عن هذه الرحلة ، خوفاً من مكيدة يكيدها لها الاعداء الكثر ، الذين ظهروا اخيراً في تلك الجهات (١ » .

ثانياً : حفظ السر — واليك تعريب التعليمات السرية ، التي امر الغراندوق سفيره قريع بان يتمشى عليها :

« التعليمات الصادرة الى الفارس ميخائيل قريع ، بخصوص المهمة التي كلفها في سورية .

« عليك ان تسافر من ليفورنو في اول مركب يقلع منها الى تلك الجهات . لا تصطحب معك سوى رفيقك(٢ ، وهيبوليت ليونسيني(٣ ، الذي نرسله معك لحنكته

---

١) فط ١٣٩ ، ١٤٠ فع ١٦٤ مد٧ و ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

جاء في تاريخ الامبراطورية العثمانية للمؤرخ هامر Hammer (فط ١٥) « ان العصاة كانوا سبعة . بيد ان الخطر الذي كان يهدد كيان الامبراطورية العثمانية نشأ في حلب ، حيث ثار جانبولاد الكردي ، بالاتفاق مع الامير فخر الدين الدرزي . فقد كانا يسعيان في تحويل سورية الى مملكة مستقلة» (الجزء ١٥ ص ١٥٠ ، ١٥١) .

٢) جرجس كروجر الالماني ، كاتب اسراره .

٣) هيبوليت ليونسيني الفرنسوي من مدينة ليون . اوفده الغراندوق جاسوساً على قريع . ثم استخدمه في مفاوضاته مع فخر الدين (فع ١٦٧-١٧٥) .

ومقدرته على تسهيل المهمة التي كلفتها . حتى اذا شعرت بحاجة الى استشارته ، اطلعته شيئاً فشيئاً على سر مهمتك ، ليتعرف الى شؤون تلك البلاد ودخائلها . وقبل سفرك يجب ان تبقى في طي الكتمان الشديد المكان الذي تقصد اليه ، والغاية التي تقصد لاجلها لئلا تسري الاخبار من ليفورنو الى تلك الاصقاع .

« واذا نزلت البر في سورية تظاهر انك قادم لاشغالك الخاصة . واذا التقيت باحد اقربائك او اصدقائك ، اياك ان تبوح له بسر قدومك . لان السر ضروري جداً ، والا حامت حول مهمتك الظنون ، وقامت في سبيلها العراقيل .

« ولا تضع الوقت ، بل اقصد حالا الى باشا حلب ، متظاهراً ان لك حاجة خاصة لديه ، واطلب مواجهته تحت ستار اطلاعه على حوادث اوربا . وهو امر طبيعي ، لانه يتشوق بلا شك الى سماع الشيء الكثير عنها ، حالما يعلم انك قادم منها .

ثالثاً : المواجهة — « اذهب لمقابلته وحدك ، متجنباً مظاهر الفخفخة . لاتطرق في بدء حديثك سوى اخبار الامراء المسيحيين . قل له انهم مرتاحون الى النجاح الذي أصابه في مقاومة ظلم الأتراك . وانك عالم ، بل واثق من استعدادهم لمد يدالمعونة اليه ، اذ ابدى لهم الرغبة فيها . فان وجدته قد صم اذنيه عن هذا الحديث ، وغير مكترث بمساعدة المسيحيين له ، وبما لديهم من القوات ، قف عند هذا الحد ، ولا تفاتحه بامر الكتب التي تحملها اليه ، والمهمة التي كلفتها لديه .

« وان الفيته مرتاحا الى هذا الحديث ، وهو ما نرجحه ، كشفت له النقاب عما اودعناك من الاسرار ، وقدمت له كتابنا ، وعرضت عليه صداقتنا ورغبتنا في محالفته . اكد له استعدادنا لامداده بقواتنا البحرية ، وشد إزره ما استطعنا الى شده سبيلا ، واقناع بقية الامراء المسيحيين ليحذوا حذونا . لان هدفنا الاكبر وهدفهم كسر شوكة الامبراطورية العثمانية الغاشمة .

« قل له اننا لا نتأخر ، اذا شاء ، ان نبعث اليه باربع او ست قطع من المدفعية المستعملة في ايطاليا ، شرط ان يعدنا بمعاملة الخبراء الذين نرتبهم على خدمتها ، المعاملة

الحسنة ، وبتخويلهم الحرية لمارسة شعائرهم المسيحية في بلاده ، والعود الى اوطانهم متى شاؤوا ، ومنحهم جميع الضمانات والتسهيلات اللازمة للقيام بوظائفهم . وليكن هذا الوعد كتابة . »

رابعاً : التضامن بين الثوار — « وعليك ايضاً ان تفهمه وتقنعه بان يتصل ببقية الثوار الخارجين على الدولة العثمانية، حتى اذا حسب كل منهم حساب قواه ، استطاعوا ضمها سوية في حرب دفاعية او هجومية . واذا عرف السلطان بهذا الاتحاد يئس من التغلب عليهم سوية ، وبادر الامراء الاوربيون الى معاونتهم بارتياح اكبر . وقد بلغنا ان السلطان يجهز قوات كبيرة لقهرهم . واول من يروم كسره هو باشا حلب . لانه سليل السلاطين الذين استعادوا سورية ، وتركوها لآل عثمان(١ . والاتحاد من الضرورة القصوى . لان الباب العالي لا شك باذل الجهد لفك عرى هذا الاتحاد فيعرض على كل بمفرده الشروط التي يرغب فيها ، حتى اذا تسنى له تفريقهم واضعافهم مزقهم الواحد تلو الآخر ، ضارباً بعهوده عرض الحائط ، كما كان شأنه هو وسلفاؤه . فان حافظوا على التضامن ، ما تجاسر على قتالهم . وان رام القتال قهروه . لان جيشهم احسن تدريباً من جنوده ، واحدث سلاحاً . واذا علم الاوربيون بانحداره في آسيا قاموا عليه في الغرب وقهروه بسهولة . وفي وسعنا ان نثير عليه في الغرب شعوباً كثيرة ، ينتظر قوادهم بفارغ الصبر التثبت من تحالف الثوار الشرقيين ، ليستولوا على امنع مراكزه في الغرب . وجميع الامراء الاوربيين الواقفين على هذه السياسة مستعدون للاخذ بيدهم .

« ولهذه الاسباب نرى من مصلحة باشا حلب وحلفائه ان يرفضوا مقابلة سفراء الدولة ويمتنعوا عن مفاوضتهم ، بل عليهم ان يخافوهم ليتهيب غيرهم . ويبيّن استعدادك

---

١) يعني كما قلنا صلاح الدين الايوبي وخلفاءه ، الذين انتزعوا سورية من ايدي الصليبيين . وكانوا من الاكراد كآل جانبولاد .

المسعي له وراء صداقة الثوار ، الذين لم ينضموا بعد اليه . فلا بد من ان تتم هذه المحالفة بينهم ، ليتضامن اعضاؤها ويتفاهموا قبل ان تباغتهم القوات العثمانية . حتى اذا ظهرت قابلوها بالسلاح وفتكوا بها . وقل له ايضاً ان من مصلحته ومصلحة حلفائه ان يعتمدوا الاعتماد كله على صداقة شاه العجم ومحالفته ، لان لديه الجيوش الجرارة وهو دائب في مناوأة آل عثمان . فان تمت هذه المحالفة تسنى للشاه ان يواصل ضرباته لانهاك القوى العثمانية ، ولحلفائه في سورية ان يتابعوا فتوحاتهم ويوطدوا مراكزهم.

« وليطمئن الباشا وجميع الخارجين على الدولة العثمانية بان الامراء المسيحيين ليس لهم مطمع في شبر من اراضي آسيا ، بل جل غايتهم ان يعمل كل بدوره على دك الامبراطورية العثمانية . حتى اذا فازوا بامنيتهم تركوا للثوار ان يتولى كل منهم مقاطعته. ولنا وطيد الامل انه ، اذا ارتفع الخلاف الناشب الان بين البابا والجمهورية البندقية ، حوّل جميع امراء اوربا قواتهم على الدولة العثمانية وشدوا بنوع أخص ازر باشا حلب عليها .

« ولك ان تخبره اننا زودناك كتابا الى ملك العجم ، وامرناك ان تقصد اليه بعد ان تنتهي مهمتك في سورية ، لتحمله على عقد هذه المحالفة ، وتؤكد له استعداد امراء اوربا لمساعدته . ونحن نرى من مصلحة الباشا ان يصحبك برجل ينوب عنه في مفاوضة الشاه . بيد انك اذا وجدته مرتبطاً بصداقته ، فلا حاجة تدعوك الى الذهاب حتى تلك البلاد ، بل تربث في حلب ، او اقصد بشور الباشا الى بقية الخارجين على تركيا لمفاوضتهم في صدد هذه المحالفة .

« وكما اننا اوصيناك بالتكتم الشديد في معاطاة هذه الشؤون عليك ان توصي الباشا بان يحفظها في سره العميق . فان رشح الى السلطان سعيه لمحالفة امراء النصرانية حول على ثوار سورية جميع قواته ليبدد شملهم قبل ان يتحالفوا مع امراء المسيحيين.

خامساً : القدس — « بعد ان يدور الحديث بينك وبين الباشا مراراً حول هذه الامور وتأنس منه الموافقة عليها ، افهمه اننا ، اذا حالفنا التوفيق في خضد شوكة

الامبراطورية العثمانية ، لا يعود لنا مأرب في تلك البلاد سوى تمكين النصارى من زيارة المدينة المقدسة والاقامة في ظلها مطمئنين . ولهذا الغرض نتمنى من صميم الفؤاد ان يتوفق الباشا في افتتاح هذه المقاطعة والاستيلاء على القدس الشريف ليسمح للمسيحيين ان يسكنوها تحت حمايته ، ويقوموا براحة بال بعباداتهم وشعائرهم الدينية . فينزلها جميع الراغبين في النزوح اليها . ولقاء هذه الحماية عده بسعينا لدى الامراء المسيحيين ليرتبوا له مبلغاً من المال يتقاضاه سنويا (١ . شرط ان يقطع للمسيحيين حول هذه المدينة اراض يزرعونها قمحاً وحبوبا لمعاشهم ، تبلغ مساحتها على الاقل حتى ميناء يافا .

« ولما كان باشا حلب يُعتبر ، وفقاً للمعلومات التي بلغتنا ، كصاحب سورية باسرها فان وجدت الامر كذلك لا حاجة لمفاتحة غيره بهذه الشؤون ولا تسليمهم كتبنا . اما اذا اشار هو عليك بمفاوضتهم فانزل على شوره واصطحب شخصاً ينتدبه لهذا الغرض ، يزوده بكتب منه . وفي هذه المناسبة استخدم تذكرتنا بمثابة كتاب توصية الى اولئك الامراء .

سادساً : التجارة (٢ — « اذا ولاك الباشا ثقته حاول اقناعه بالسماح لمراكبنا التجارية والحربية ان تدخل ثغر الاسكندرونة ، او غيره من الثغور التابعة لولايته . واكد له ان هذه التجارة عائدة بالفائدة الجلى عليه وعلى المقاطعة كلها . وان لنا هناك سبعة مراكب حربية مسلحة اتم التسليح نضعها تحت تصرفه . وان شاء امرناها ان تسد بوغاز الاستانة . فيعجز السلطان عن ارسال المدد لمحاربته . وهذه المراكب لا تخشى العمارة العثمانية مهما بلغ بأسها وعظم شأنها . ولا تكتفي مراكبنا بجلب البضائع

---

١) تجد في المتن ازاء المبلغ رقمي ٢٥ او ٣٠ الف سكوت وقد شطب عليهما .

٢) لهذه الوثيقة نسخة في مكتبة الفاتيكان (Borghese II. 20 ff. 215-217) سقطت منها هذه الفقرة لانها من شؤون الغراندوق الخاصة .

الى ثغري طرابلس والاسكندرونة . بل نبتاع نقداً كمية من محصولات بلاده ، اخصها القمح ، اذا فاض عنها .

« واذا تسنى لك فتح باب هذه التجارة ، وفزت من الباشا بوعد خطي ، اجتهد ان تبلغ الخبر الكونت مونتكوكولي ربان هذه المراكب (١ . حتى اذا رأى مناسباً قصد الى ذينك الثغرين ، كما يقصد الى السواحل الفنيقية ، وتمون منها الماء . وليكن كتابك من نسختين . واجعل مكافأة الساعي مائتي قطعة من ذوات الثمانية الفرنكات يقدمها الربان المذكور اعلاه الى حامل تلك البشرى . واكتب لنا ايضاً بذلك عن طريق الاسكندرونة ، على يد قنصلها الفرنسوي . وسلم الكتب الى اول مركب فرنسوي قاصد الى مرسيليا او الى البندقية حيث يسلمها الى قنصل فرنسا في هذه الجمهورية (٢ . ام الى مكتب بشيوليني في مرسيليا (٣ . او الى كوزيمو دلسيرا (٤ . في مسينا . واذا وجهت الكتب عن طريق قبرس فارسلها الى برتلماس مونتر الهولندي المقيم في الملاحة بالجزيرة (٥ ، وهو بدوره يوجهها الى متى ترنسيو (٦ في ليفورنو .

سابعاً : الشاه والبطريرك الماروني — « واذا انجزت مهمتك في سورية ووجدت

---

١) — Montecuccoli

٢) كانت ماريا مديشي ملكة فرنسا ، ابنة اخ الغراندوق فردناندو الاول ، فكان القناصل الفرنسويون يلبون رغباته بارتياح.

٣) Pesciolini

٤) Cosimo del Sera

٥) Bortolomeo Munter كان وكيلا سريا للغراندوق . وجدنا له بين الوثائق التسكانية تقريراً قيما عن جزيرة قبرس ، قدمه الى الغراندوق (مد ٤ كراس ٤ و٢٥ ، ٢٦).

٦) Matteo Terenzio .

باشا حلب راغباً في صداقة شاه العجم قصدت اليه وقدمت له كتابنا وفاوضته مشافهة بالنوع الذي فاوضت به باشا حلب . فتحمله على انتهاز الفرصة والاتصال بالابطال العديدين الخارجين على الدولة العثمانية ، ليتضامن معهم عليها . واعتذر له عن تقصيرنا في مكاتبته بعد وصول البعثة التي اوفدها الينا . فقد كنا كما تعلم نتحين الفرصة المناسبة لارسال الخبراء الذين طلبهم منا . فحال بعد المسافة وخطر السفر الى بلاده دون رغبتنا . واكد له اننا على اتم الاستعداد لخدمته بما في وسعنا لدى صدور اول اشارة منه الينا .

« واما البطريرك الماروني، الساكن في دير العذراء في جبل لبنان (١ ، فقد كتب لنا عن حالة المسيحيين التعيسة في تلك الجهات . فاحمل اليه الكتاب المطوي هنا . واذا سنحت لك الفرصة بالمرور قريباً من ذاك المكان ، زره من قبلنا واجتهد في اكتساب صداقته ، لانها لا شك نافعة في مشروع الاراضي المقدسة الذي نعده . وان لم يتسن لك المرور ارسل جوابنا اليه (٢ .

« صح . الحاقا لما قلناه سابقاً عن فتح باب المتاجرة مع تلك الجهات ، لتتمكن مراكبنا من الرسو في ميناء طرابلس سورية ، نرغب اليك اذا نلت الاذن الرسمي بذلك ان تبادر الى اعلام اميرالنا حالما تعرف انه وصل بالمراكب الى الثغور القريبة ، كثغور فنيقية او غيرها . ولتكن الكتب التي توجهها الى الكونت مونتكوكولي مكتوبة بالارقام ، لان لديه منها نسخة مماثلة للنسخة التي بيدك . وعليك ان تفيده اذا كان بامكانه ان يجلب الى اسواق طرابلس البضائع التي غنمها (٣ ، او ان يعرض فيها لابيع الاسرى الذين وقعوا في قبضته . واتفق مع الاميرال على المبلغ الذي تراه، مراعياً الفرص التي تنفسح امامك (٤ .

---

١) البطريرك يوسف الرزي (١٥٩٧-١٦٠٨).وكان ساكناً دير قنوبين.

٢) راجعه في فم ١٦٥ . وهو يحمل تاريخ ٢٥ كانون الثاني ١٦٠٧.

٣) من المراكب او الثغور العثمانية . ٤) مد ٥ و ٤٩-٥٤ .

٥ - *تجهيز البعثة* . وارفق الغراندوق سفيره ببعض الهدايا الثمينة ليقدمها الى علي باشا مع كتاب منه اليه ، وتذكرة هوية يستخدمها السفير بمثابة توصية به لدى الاشخاص الذين يتفاوض معهم .

اولا : الهدايا والبضائع ــ واشار قريع على الغراندوق ان تحمل المراكب الى سورية كمية من الارز وشتى الحبوب . ومجموعة من الحرائر والاجواخ التسكانية . ولا بأس من تصدير كمية من البن وقليل من الكينا . وليكن الرأسمال النقدي من الريالات التسكانية . فيعود تصريفها في سورية بارباح لا تقل عن ٢٥ بالمئة .

وتوسق المراكب في عودتها بكمية من الرماد الدمشقي (١ ومن الغزل والاصواف الخشنة للتنجيد . كل هذه البضائع رخيصة الثمن وافرة الارباح (٢ .

اما الهدايا فيحسن ان تكون مؤلفة من طاقم عسكري فاخر لقامة رجل معتدلة، مركب من خوذة ولأمة وترس وما شاكل ذلك،مع بعض الطبنجات المرصعة بالذهب وقطع من الاجواخ لبطانة الباشا (٣ .

ثانياً : نفقة السفر ــ وقدم السفير ايضاً بياناً بنفقات السفر براً ، رأينا من الفائدة تعريبه ، لمعرفة ما كانت تتطلبه اسفار البر في ذاك العهد من الاكلاف والوقت :

« لا حاجة الى الكلام عن نفقات السفر من ليفورنو الى الاسكندرونة ، لان سموك قد امرت باعداد اللازم له .

« المسافة من الاسكندرونة الى حلب ثلاثة ايام ركوبا يلزم لقطعها اربعة جياد ، ثلاثة لنا والرابع لاحمالنا . فضلا عن سائس . تبلغ نفقة الخيول اثني عشر سكوتاً ، باعتبار سكوت واحد في اليوم لكل رأس منها .

---

١) الذي كانوا يستعملونه لصنع الزجاج النقي والبلور الفاخر.راجع قع ٤٨،٤٩.

٢) مد ٥ و ٨٠.

٣) مد ٥ و ٨١.

« واذا كان الباشا خارج حلب علينا ان نقصد الى دمشق ام الى القدس ، او حيث حلت ركابه . المسافة من حلب الى دمشق ثمانيـة ايام . ومن دمشق الى القدس اثنـا عشر يوما . ولا بد لهذه الرحلة من استئجار اربعة ركائب ونفقة المعاش لاربعة اشخاص بينهم طباخ سأنتقيه من ذوينا في حلب .

« والاوفق في اسفار البر ان نرافق القوافل تخفيفاً للنفقة وتجنباً للاخطار . وان لم نجد قافلة مسافرة الى تلك الجهات نظراً للحرب المستعرة فيها ، اضطررنا الى استئجار عشرة او اثني عشر نفر مسلح ، ليرافقونا ويؤمنونا على حياتنا واحمالنا . والا استحال علينا السفر . وهم يعاهدوننا على درء الاخطار عنا ، بيد انهم يطالبوننا بالاجرة والنفقة التي يجب ان تحسب مضاعفة للذهاب والاياب .

« واذا شئت سموك ان نقصد الى بلاد العجم اضطررنا الى شراء اربعة بغال . لان الاستكراء لا يوافق في رحلة طويلة . ولا مناص في هذه الحال من استئجـار سائس للخيل ، ويعوزنا المبلغ الكافي للنفقة علينا وعلى الخيـل ذهـابا وايابا . ولا بد من ان يكون المبلغ زائداً عن هذا التقدير ، فالاوفق ان يفيض عنا من ان ينقص . على ان نقدم حسابا عنه لدى رجوعنا . والعملة يجب ان تكون من الريالات التسكانية وبعض النقود المتقاربة (١ .

ثالثاً : تذكرة الهوية ــ وهاك تعريب التوصية العامة التي سلمهـا الغراندوق الى سفيره ليبرزها عند الحاجة .

« لما كنا قد اوفدنا الناوس ميخائيل قربع لقضاء بعض المهام المتعلقة بنا في سورية وقد يضطر ان يقصد حتى بلاد العجم ، رأينا ان نزوده كتابنا هـذا المفتوح ليعرفه الامراء والاعيان الذين يقابلهم كمندوب من طرفنا . فرجاؤنا الى جميع الذين يطلعون على هذا الكتاب ان يقبلوه بصدر رحب وان يخولوه الحماية والرعاية ، ويسهلوا عليه مهمته ويساعدوه في ما يحتاج اليه . ونحن نعاهـدهم بدورنا على معاملة الاشخـاص

١) مده و ٨٩ .

الوافدين من طرفهم والمزودين بتوصياتهم المعاملة نفسها . واشعاراً بذلك قد ذيلنا هذا الكتاب بتوقيعنا وختمناه بخاتمنا (١ . »

رابعاً : من فردناندو الى علي باشا ــ واليك تعريب الكتاب الذي وجهه الغراندوق الى علي باشا على يد سفيره :

« والي حلب في ٢٥ كانون الثاني ١٦٠٧

« فردناندو

« الى صاحب السمو والصولة ، السيد علي باشا ، سليل بيت جنبلاط النبيل، والي حلب ودمشق وطرابلس سورية ، وكامل الاراضي المقدسة .

« ان وقوفكم الجريء الشريف في وجه آل عثمان الظلمة قد اكسبكم عطف جميع الامراء المسيحيين وثناءهم . وهم يتمنون لكم من صميم افئدتهم مزيد العز والفخار . اما نحن الدائبين في مناوأة هذا العاتي الكبير ومضايقته باغربتنا ومراكبنا ، فتجدونا مستعدين الاستعداد كله لشد ازر جميع الخارجين عليه .

« ولما كان الفارس ميخائيل قريع عائداً الان الى حلب وطنه ، وهو من معارفنا واحبابنا كلفناه ان يسر اليكم اموراً عائدة لمصلحة الطرفين . فنأمل ان تصغوا اليه بارتياح وتعرفوه عن الخدمات التي نستطيع ان نؤديها لكم . ونختم باهدائكم اعطر السلام واخلصه . »

المستعد لخدمتكم (٢

وارفق الغراندوق هذا الكتاب بطاقم فاخر من اللباس الحربي مرصع بالذهب ومبطن بالحرير . مع بندقية بلولب من احدث طراز ، وطبنجتين ثمينتين بغمديها وكامل لوازمها (٣ .

---

١) مد ٥ و ٥٧ .

٢) مد ٥ و ٥٥ .

٣) مد ٥ و ١٤٢ .

الفصل الثاني

المعاهدة

١ ــ **البعثة في حلب.** لدينا عن سفر البعثة ومرورها بجزيرة قبرس ، وتريثها في مدينة طرابلس ، واستقراوها في حلب ، اربع رسائل ، اثنتان لقريع بالايطالية ، واثنتان لرفيقه ليونسيني بالفرنسوية القديمة :

اولا : في جزيرة قبرس ــ بعيد وصول البعثة الى قبرس كتب ليونسيني من الملاحة ، في اول اذار ١٦٠٧ ، الى كاتم سر الغراندوق ، يخبره عن اقلاعهم من ليفورنو مساء ٣٠ كانون الثاني ١٦٠٧ ، ومكوثهم في البحر ثمانية عشر يوما ، تارة يغالبون الارياح والعواصف ، وطوراً يستسلمون للنسيم الصديق ، حتى بلغوا الملاحة في قبرس . والرسالة طويلة لا تخلو من فكاهة ، بيد انها خالية من المعلومات التاريخية، فلا فائدة من تعريبها للقراء او تلخيصها (١ .

اما رسالتا قريع ففيهما الدسم كله . فقد كتب في التاريخ عينه الى الغراندوق والى كاتم اسراره ، يخبر عن نزوله البر في الملاحة ليفتش عن مركب يقلهم الى طرابلس اللبنانية ، وبه يتقدم الاخبار . ولما لم يجد مطلوبه ركب براً الى فاماغوستا، حيث امسكوه لاشتباههم بكل الاجانب القادمين الى الجزيرة ، وقد قتلوا منهم خلقاً كثيراً . بيد انهم لم ينزلوا به الاذى لمعرفته لغة البلاد وتصريحه انه حلبي عائد الى

١) مدة و ٦٢، ٦٣ .

وطنه . واكتفوا باحضاره امام حاكم الجزيرة التركي ، الذي سأله عن اخبار اوربا السياسية . فاجابه انه تاجر لا يفقه من السياسة شيئاً . وفيما كان يحادثه دخل عليه قيم داره واسرّ اليه عن ثورة الف وخمسمائة تركي في الجزيرة انضموا الى المسيحيين فاضطرب الحاكم لهذا النبأ وأخلى سبيله . واتصل به ان احد اعيان الاتراك تنصر اخيراً وهرب بمئة من رجاله الى مالطه ، ليعبر منها الى اسبانيا .

وواصل قريبع مسيره الى نيقوسيا ، حيث واجه مطران الاروام واتفق معه على ان يثور رعاياه حالما يظهر الاسطول التسكاني في مياه الجزيرة . فافضى اليه الاسقف بفروغ صبرهم من ظلم الدولة العثمانية ، واستعدادهم لخلع نيرها ، اذا شاء الغراندوق مساعدتهم . وهم يثقون به اكثر من ثقتهم بملك اسبانيا او بالجمهورية البندقية(١ .

ثانياً : البعثة في طرابلس ــ واستأنفت البعثة السفر الى طرابلس ، وتابعت سيرها حتى حلب . فكتب ليونسيني من هذه المدينة في آخر ايار ١٦٠٧ ، كتاباً ضمنه معلومات طريفة عن مهمتهم واحوال الباشا والمدينة والولاية ، رأينا ان نعرب للقراء اهم فقراته وان نلخص البقية . وفيه ، فضلا عن لغته القديمة ، من الغموض والابهام ما تعمده الكاتب حيناً ، وتخبط فيه احياناً (٢ :

« سافرنا من الملاحة في ١٧ اذار قاصدين الى طرابلس ، حيث قضينا ثلاثة عشر يوما ، كنا نستطيع في غضونها زيارة جبل لبنان المقدس ، لاننا كنا على مسافة يوم واحد منه(٣ . فلم يرض (٤ بالرغم من الحاحي ، ومن زيارة الحاكم نفسه لنا ، وقد اوفده البطريرك بصحبة كاهن وطني . فاكتفى بتسليمه رسالة الغراندوق الى ذلك

---

١) مد ٥ و ٦٤ . راجع ايضاً كتابه الى الغراندوق و٥٨ .

٢) نشرنا ما يتعلق منه بفخر الدين في فط ١٤٢ وفع ١٦٧ .

٣) يعني على الاوجح الارز او جبة بشري ، التي كانت تعرف في ذاك العهد بجبل لبنان .

٤) اي قريبع .

الخبر . واصر على ان لا يسافر الا بصحبة القوافل . فاضطرونا الى التعوق في طرابلس حتى اول نيسان . ثم باوحناها مع قافلة فوصلنا الى حلب بعد ثمانية ايام ، صباح احد الشعانين ، سالمين نحن واحمالنا ، التي ازعجتنا كثيراً في رحلتنا .

« وبعد الاعياد قابل الباشا وقدم له الهدايا الفاخرة ، فتقبلها بارتياح ، واظهر الميل الى المشروع الذي عرضه عليه ... ونحن نغذي الامل باستئناف السير الى بلادفارس.

وهنا يأخذ الكاتب على قريبع تسرعه في تقديم الهدايا ، وثقته العمياء بالباشا، الذي اصطلح حديثاً مع الباب العالي . اما السفير فيظن ان صلحه محض تظاهر ، وان مقاصده الحقيقية ستنكشف عن قريب .

ثالثاً : حوادث حلب — ويتذمر ايضاً ليونسيني من قريبع لانه لا يشركه في المهمة ، ويحظر عليه الخروج الى المدينة الا نادراً وبرفقته . فهو ملازم غرفته الواقعة خارجاً عن المدينة ، لا يتركها الا لزيارة تاجر من مواطنيه الفرنسويين ، حيث يتسنى له تنسم الاخبار والمكاتبة . وهو يشك في نجاح السفير ، لانه سلك كالدائن الذي يسلف ماله دون التثبت من مقدرة مدينه على الوفاء . ثم ينتقل الكاتب الى سرد ما اتصل به من الاخبار ، فيقول :

« وصل الى هنا مندوبان من الاستانة الى الباشا . الاول جاءه بفرمان سلطاني يخوله تعيين السناجق وعزل الباشاوات الخاضعين لولايته ، وتثبيتهم . وقدم له خلعة سنية من الجوخ المطرز بالذهب ، انعم بها السلطان عليه لارتياحه الى ما ارسله اليه من المال بعد الانفاق ، وقدره مئة الف قرش . اما المندوب الثاني فلم يخرج الباشا للقائه كما فعل مع الاول ، الذي انتظره مع بطانته على مسافة نصف ميل من المدينة . مع ان الثاني وصل بحاشية معتبرة . وبعد وصوله بيوم واحد واجه الباشا وطلب اليه خمسين الف قرش يقدمها للخزينة السلطانية سلفة على مال السنة القادمة . واكبر الظن ان الباشا سيرضيه بما يتيسر له تدبيره ، لضيق ذات يده ، لانه بحاجة الى اربعين الف قرش في الشهر لرواتب جنوده . فخزانته ابداً فارغة .

رابعاً : زواج الباشا — « وقد ازدادت الان نفقاته عن قبل . لانه تزوج حديثاً بنت الامير يوسف ، باشا طرابلس . وصلت العروس الى هنا منذ شهر ، وجرى لها استقبال فخم . بيد ان الامير فخر الدين ، الذي لم يكن بعد قد اصطلح مع الامير يوسف ، كتب الى الباشا يلومه على اتحاده مع عدوه ، ويهدده ، ان هو رضي بتجهيز شقيقته الى ابن الامير يوسف ، أن يمنعها بالقوة . الامر الذي حمل الباشا على منع ابنة سيفا من دخول قصره ، وانزالها بيت عمة لها في المدينة ، واجابة فخر الدين انه فاعل كل ما يطلبه منه ، لانه يفضل صداقته على اي شيء آخر .

« وفي هذه الاثناء بلغنا خبر محاصرة فخر الدين لطرابلس ليقبض على الامير يوسف بيد ان هذا الثعلب العجوز ، لما أحس بالخطر، هرب الى قلعة الفرنجي(١ ، البعيدة عن طرابلس مسافة يومين . وهي اجمل قلعة في اراضي الامبراطورية العثمانية ، وأمنعها . وبعد ان شد فخر الدين الحصار على طرابلس دون ان يقوى عليها ، ذهب لمحاصرة ذلك القصر ، الذي انتزعه الامير يوسف منه في السنة الماضية . وما هي بضعة ايام حتى وقع في قبضته . بيد ان الامير يوسف بعث بالرسل الى هذا وذاك . وعرف كيف يتدبر الامر ، وما زال حتى ارضى بالمال الاثنين معا .

« وقد تزوج علي باشا من ابنته دون احتفال . واعداً باقامة مظاهر الافراح حالما ينتهي من اخماد ثورة نشبت حديثاً في مملكته . ثم جهز الى طرابلس شقيقته المخطوبة لابن الامير يوسف . بعد ان تنازل هذا عن طلبه الجنوني ، بان يُعطى ولاية مدينة حماه مهراً لاخته . وكان الباشا اوشك ان يعيد العروس الى طرابلس .

«عيَّن السلطان الامير يوسف والياً على دمشق، على ان يبقى ابنه متولياً طرابلس ويقال ان باشا دمشق الحالي لا يعارض في تسليمه المنصب اذا دفع له مائتي الف قرش، او على الاقل مئة وخمسين الفاً. اما اذا ابى الدفع امتنع عن التسليم وان رضي الاهالي. وقد جمع الباشا وجوه المدينة وشاورهم في الامر ، فقر رأيهم على ان يجند كل حي

١) قلعة الحصن في عكار .

من احيائها عدداً من الانفار ، فيجتمع لديهم جيش لا يقل عن اثني عشر الفاً . اما الغاية من حشد هذا العدد الغفير من الرجال فمجهولة حتى الان . وقد داخلهم الخوف هنا من ان يُستخدم هذا الجيش ضدهم ، لانهم يعلمون ان الدمشقيين حاقدون على باشا حلب (١ . اما هو فغير مكترث لهذا الامر .

خامساً : حوادث الولاية ــ « سرت هنا اشاعة مؤداها ان الباشا ارسل هذين اليومين وفداً ومالا الى مدينة وان ، التي احتلها شاه العجم . وبعضهم يقول انه ارسلها الى كراميت ، التي ثار حاكمها وانضم اليه جمهور من العصاة . وهم يجاهرون بعزمهم على تخريب البلاد ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

« ثورة بني العقيل (٢ ، على بعد ثلاثة ايام من هنا ، قد اخمدها الباشا بحملة جهزها عليهم . وهذا كان شأنه ايضاً مع ثوار عينتاب . وكان يخشى ان يقلقوا كامل الولاية . بيد ان المال والكلام المعسول قد اصلحا كل شيء .

« اما ما خص شؤون المدينة فلا يجسر المرء التجول فيها ، للتعديات المشينة التي ترتكبها العساكر ، وهم زهاء عشرة آلاف ، وكلهم من المترزقة الملقبين بالسكمان . واذا قدمت عليهم شكوى زادوا قحة ، فلا رادع لهم عن النهب والخراب اينما شاؤوا . لانهم يصرحون علناً ان الباشا مدين لهم بولايته على المدينة ، وبالاحتفاظ بها . اما هو فيتحملهم خوفا من ان يتخلوا عنه ، لا سيما ان الثورات تنشب في مملكته لادنى سبب . وفي خارج المدينة عصاة يمتنعون عن تأدية المال .

سادساً : وسوم الزيت ــ « وصل الى هنا فارس دوق مانتوفا ، المدعو ميخائيل

---

١) لانه حاصر دمشق في السنة السابقة ونهب احياءها الخارجية وغرّمها ١٢٥ الفاً ، كما سبق القول .

٢) في الاصل Aquille ولعلها قبيلة .

قريع (١ . فاتصل بالباشا وقدم له الهدايا الثمينة واكتسب صداقته . ونال منه كمرك الزيت بكامله ونصف كمرك الحرير مع رسوم الخان ، اعني ضمان المخازن والغرف التي فيه (٢ . وهو ما يدر عليه من ثمانية الى عشرة آلاف سكوت في السنة ، حسب كميات الزيت والحرير التي ترد اليه وتباع فيه . ويكفي القول انه عرف ان يستفيد . وهو يغذي الامل بان يمنحه الباشا وظيفة امين الكمرك الاول ولقبها . وفي هذه الاثناء تراه يتمتع بموارد هذين الرسمين . وقد كلف ولدي اخيه الاشراف على العمل ، واحتفظ هو بالامتياز ، وفاز حتى الان بارباح تذكر . ولا يتوجب عليه لقاءها سوى ان يقدم للباشا ثمانمائة سكوت في السنة ، اي مئة وخمسين سكوت في الشهر وكمية من الزيت لمطبخه . ويظهر ان رجوعه الى ايطاليا هو آخر ما يفكر فيه (٣» .

سابعاً : قلق الغراندوق — هذه الوشاية اقلقت بال الغراندوق ، وظن ان سفيره قد خدعه ، محولا لمنفعته الشخصية الهدايا والاموال التي سلمها اليه ومستثمراً المنصب الذي رفعه اليه . فكتب اليه كاتم سر الغراندوق في ١٣ تشرين الاول ١٦٠٧ ما يلي تعريبه :

« بعد وصولك الى حلب لم نتسلم منك سوى كتابين صغيرين ، رددنا عليهما وسلمنا الجواب الى رفيقك الذي اوفدته الينا . مع اننا كنا متشوقين للاطلاع ببعض الوضوح على اخبار تلك الجهات . وسموه راغب في معرفة ما آل اليه امر ذلك الكتاب الذي كلفك تقديمه للباشا ، وكيف تلقاه وهل في نيته الاجابة عليه .

« وقد بلغته اخبار مفادها انه قد تأهل ببنتي باشوي طرابلس ودمشق ، وانه

---

١) يتظاهر انه لا يعرفه خوفا من وقوع الرسالة في ايدي الاتراك . بيد انه ينتهز الفرص ليثلبه ويثير ظنون الغراندوق فيه .

٢) لعله خان الكمرك القائم حالياً .

٣) مد ٥ و ٦٦-٦٨ .

عقد الصلح مع السلطان ، وادى له الاموال الاميرية ، واوفد اليه اكثر من مندوب. هذا ما كُتب الى سموه من الاستانة (١ . وهو يرغب اليك ان توقفه على كل الشؤون الراجعة الى هذا الامر ، وعلى الآمال التي يمكنه ان يعقدها عليه .

« ومما ادهشه ايضاً انك لم تكتب كلمة عن ليونسيني ، مع ان سموه يرغب في ان تستخدمه وتتيح له الفرص ليتعرف الى البلاد والى اعيانها ، ويتمرن على سياستها . واذا كان للباشا مطالب في هذه الاطراف ، فاكتب لنا لنقضيها له . واختم باهدائك أخلص التحية ، سائلا المولى ان يمنحك كل خير (٢ » .

٢ ــ **التحريض على الثبات**. وكان قبل هذا الكتاب قد زود الغراندوق سفيره باخبار يستعين بها لتشجيع علي باشا وجميع العصاة على الثبات في موقفهم ، والمضي في تبسطهم على حساب الدولة العثمانية .

اولا : اوربا ضد الاتراك ــ فكتب كاتم اسراره الى ميخائيل قريع بتاريخ ٨ آب ١٩٠٧ يخبره ان امبراطور هنغاريا ، بعد ان اوفد رسولا يعرض على السلطان شروط الصلح عاد فاستدعاه فجأة ، وعقد النية على مواصلة الحرب . وقد اوفد الى ميدان القتال ست فرق من الرجالة والخيالة ، كل فرقة مؤلفة من ثلاثة آلاف محارب . فتعهد ملك اسبانيا بنفقة احدى هذه الفرق ، وقدم امير ساكسونيا للامبراطور سمائة الف ريال للغرض عينه ، وعاهده بقية امراء المانيا على ان يمده كل منهم بفرقة من الرجال .

وان ملك اسبانيا يجهز لحرب الاتراك ستين غرابا ومركباً ، خلاف ما يجهزه نائباه في نابولي وصقلية . وستلتقي قريباً في ميناء مسينا اساطيل الكرسي الرسولي وجنوفا

١) لم يقل من حلب اثلا يكشف امر ليونسيني الذي كان يتجسس عليه . بيد ان ما يلي ذلك انه تلقى هذه المعلومات من المذكور .

٢) مد ٥ و ١٤٥ .

وميلانو ومالطه ، فضلا عن المراكب التسكانية . ناهيك عن ان ملك اسبانيا قداوصى على كميات هائلة من الاسلحة والمدافع والالبسة العسكرية ، وعلى مقادير كبيرة من الكعك والبقسماط ، وغير ذلك من اجهزة الجيش وزاده . وعقد مع الفلمنكيين هدنة ثمانية اشهر . والمساعي تبذل الان لابدال هذه الهدنة بصلح دائم ، ليتمكن من تحويل جميع قواته على الدولة العثمانية . والجمهورية البندقية تؤلف جيشاً لا يقل عن اثني عشر الف ، وتعد لنقله سبعين غرابا واربعة غلايين ، وهي موطدة النية على استرداد ما انتزعه الاتراك منها . بيد انها تتظاهر ان هذه الجيوش والمعدات تجهز خوفا من ملك اسبانيا (١ .

واما الغراندوق فقد اصدر اوامره الى اسطوله باحتلال جزيرة قبرس. وان تمثل في اخذها او الاحتفاظ بها ابقى في تلك البحار ثمانية مراكب حربية وخمسة عشر غرابا مجهزة باحدث الاسلحة واشد الرجال . وهي قادرة على تحطيم عمارة الدولة العثمانية ، اذا قصدت الى تلك الجهات بنية التصدي لعلي باشا جنبلاط وحلفائه الخارجين عليها . وسموه على اتم الاستعداد للتفاهم معهم ومواصلة انجادهم . فليتشجع الباشا وحلفاؤه على الثبات في موقفهم ومواصلة فتوحاتهم .

ثانياً : ما يعده السلطان ضد جنبلاط باشا — ه بلغ سموه بطريقة سرية من الوزراء اصدقائه القائمين في الباب العالي نفسه ، ان السردار الذي تعين لقيادة الحملة على ثوار سورية (٢ ، قاصد اليهم بجنان هامد . وهو يحمل معه السموم وشتى العقاقير القتالة لاهلاكهم . وسيعمد اولا الى المداهنة والغش ، خاصة مع علي باشا ، الذي يضمر له السلطان كرهاً ما بعده كره . وهو زاحف بستين الفاً ، بينهم عشرون الفاً من الانكشارية ، وقاصد رأساً محاربة جنبلاط باشا ، ان لم يستوقفه سائر الثوار .

---

١) لانها كانت متعاقدة مع تركيا ، كما سبق القول ص ١٢ .

٢) مراد باشا القبوجي .

« على ان الانكشارية ليسوا من الاصيلين ، بـل ان اغلبهم من النور ومواليـد الانكشارية . فبين العشرين الفاً لا تجد ثلاثة آلاف نزلوا ميـادين الحرب واكتووا بنارها . ولما كانت الدولة قد استخدمت وسائل القسوة لاجبارهم على التجند وعبور البوسفور ، تراهم ينسلون ليلا من المعسكر ويختبئون هنا وهناك . فلا يبقى مع السردار لدى وصوله الى حلب غير النزر القليل منهم .

« فاذا اتحد علي باشا مع بقية العصاة ، وجهز جيشاً منظما ، كالذي قاده عند ركوبه على دمشق ، تفوق لا محالة على الوزير القادم عليه ، ومزق جيشه تمزيقا . لان افضل جنود الدولة التركية بقيت في هنغاريا محافظة على الحدود والقـلاع ، خيفة ان يمتنع الامبراطور عن عقد الصلح . واذا تيسر لجنبلاط باشا التغلب على الوزير ، تمكن من الزحف حتى الاستانة ، لان السلطان لم يعد لديه جيش يستخدمه لتوقيفه .

« فعليه اذن ان يرفض كل مفاوضة يعرضها عليه الوزير سواء اكان اساسها الصلح ام المعاهدة . وان لا يقبل مندوبا او وفوداً من الاستانة ، لانه لا محالة واقع في شراكهم وسيعرض السلطان عليه ما شاء من الشروط والعهود ، طمعاً في القبض عليه واهلاكه كما فعل بكثيرين غيره من العظماء » .

« صح . بعد كتابة هذه الاسطر عادت الغلايين الى ليفورنو دون ان تتوفق في حملتها على فاماغوستا . فقد شاءت التقادير ان لا تجد في انتظارها غلايين الكونت مونتكو كولي الخمسة . فحاولت احتلال المدينة بثمانمائة وستين جنديا فقط . والدليل الذي رافق الحملة لم يكن عند حسن الظن به . وكانت الابواب مسدودة بالتراب ، والسلالم جاءت قصيرة غير وافية بالمرام . ولم تحضر الغلايين والمراكب الا في اليوم الثاني . فنزلت الى البر الفي رجل قصدوا الى قرية تبعد اربعة اميال عن الساحـل ، على امل ان يثور الاروام لدى رؤيتهم ، وينضموا اليهم لمحاصرة فاماغوستا . بيد ان القائد رأى من العبث الاعتماد على هؤلاء . فاكتفى بابقاء المراكب المسلحة والغليون

في تلك البحار لمضايقة الاتراك . والاخبار ترد الى هنا منبئة بضعف جيش الحملة وسوء تدريبه . فليطمئن الباشا بالا وليتوقع لنفسه فوزاً باهراً (١ .

ثالثاً : خطاب السفير — عثرنا بين الوثائق المديشية على نص الخطاب الذي اعده قربيع، او بالاحرى أعد له ، ليتلوه بحضرة علي باشا جنبلاط، مهنئاً اياه باسم الغراندوق موقمه ، بما ناله من النصر في المعامع التي خاضها . والخطاب طويل نقتصر على تعريب مقدمته :

« اي لسان لايجمد ، واي اذن لا ترتعش لذكرى المصرع الفظيع الذي ينتظر عمك ، رحمة الله عليه . فبينما كنت اغذي الامل بالابتهاج مع سعادتك للنصر الذي احرزته على اعدائك ، اذ بهذه المأساة تنتصب امام عيني . فقد قتله سنان باشا بن جغاله بلا شفقة وبلا ادنى ذنب ارتكبه . بل مدفوعا من الحسد الذي ينخر قلبه المتحجر ، ويمتزج فيه بالعجرفة والخيانة .

« بيد ان نفسي طابت للعقاب الذي انزله به الله تعالى . فلم يكتف باهلاك جنوده بل افقده سمعته وشرفه ، فمات كمداً .

« ولما لم احظ برؤية المغفور له حسين باشا عمك ، لم احرم نشوة السرور ، التي هزتني لثأر ابن اخيه له . وقد حرمتني المشيئة الالهية مشاهدة سعادتك ومسقط رأسي مدة عشر سنين ، بيد انها يسرت لي العود في هذا الوقت السعيد، لابتهج مع سعادتك بذكرى فتوحاتك الموفقة . »

وهنا يلج الخطيب باب المديح على مصراعيه ، فيبذل له النعوت ويعدد الصفات التي تفرد بها ، من بطولة وعدل وحلم وكرم. ويبالغ فيها المبالغة كلها ، شأن الشعراء الشرقيين ، غير انه يشبهه بالمة وتنيين من ابطال الغرب ، مما يدل على ان الخطاب قد اعده له احد كتبة اسرار الغراندوق ، بعد ان استقى منه بعض المعلومات الخاصة .

---

١ مد ٥ و ١٥٤ - ١٣٩ .

ثم يتخلص الى مديح الغراندوق فينزله اعلى منزلة بين الامراء المسيحيين . ويؤكد لعلي باشا محبته له واستعداده لتلبية رغائبه وشد ازره في سياسته المعادية للأتراك .
ويقدم له اعطر التهاني باسم الغراندوق لانتصاراته الباهرة ، ويتمنى له دوام التوفيق مما لا يخرج عن الكلام المبتذل في مثل هذه المواقف الخطابية. ومما يلفت النظر تشبيهه بالامام علي الذي ثأر لولديه حسن وحسين المغدورين ، كما ثأر هو علي باشا لعمه حسين ويفسر عن التركية اسم « جان بولاد » بالنفس البولادية (١ .

ولا نعرف اذا كان هذا الخطاب بقي طي الاوراق ، ام تلاه السفير على مسامع علي باشا بحرفه ومبناه .

٣ ـ **المعاهدة السياسية التجارية** . لم تكن مهمة السفير من الهينات التي يفوز بها المرء بمجرد المديح والعطاء . كان عليه ان يتصل بالباشا دون ان يكشف له سر مهمته ، او يثير الظنون فيه . وان لم يكشف السر ، فكيف يثير اهتمامه ويكسب ثقته . وان فشاه فهل يأمن غضبه ويدرأ عقابه ، وقد يكون العقاب الموت بلا رحمة . وان نجا فهل يتقي شر جواسيس الباب العالي المحيطين بالباشا المشبوه ، يعدون عليه خطواته وكلماته وعلاقاته بكل من يتصل به . فتذرع قريبع بالفطنة والجرأة ، وهما قلما يجتمعان ، ونال فوق ما خطر له ولسيده على بال .

اولا : كتاب السفير ــ وما ان صار العقد بين يديه حتى اسرع بتكليف رفيقه ليونيني ايصاله الى الغراندوق . وارفقه بتقرير مسهب ، وبكتاب مؤرخ في ٣ تشرين الاول ، اليك تعريبه عن الايطالية :

« صاحب السمو مولاي الاوحد .

« مع ان اسفار البحار قد عوقتني ، وعراقيل غير منتظرة قد فاجأتني واقفة في طريق مهمتي ، واتمام اوامر سموكم ، فتأخرت عن كشف امري للباشا . بيد ان

---

١) مده و ٨٥-٨٧ .

المولى خولني اخيراً الفرصة للشروع في العمل دون ان اوضح حقيقة امري ، فاخذت اسعى وافاوض وادلي بالبراهين المقنعة . ومازلت حتى اذن لي الوالي في الدخول الى مجلس شوراه السري ، حيث كلفني الافصاح عن رأيي في مصير هذه الامبراطورية المتخبطة في الفوضى والقلاقل . فانفسح لي المجال لبلوغ الهدف الساعي اليه ، تاركا للزمان اتمام المشروع الخطير .

« فالشكر لله لفوزي باكثر ما كنت اعلل النفس به . كما يتسنى لسموك التثبت منه بعد مطالعتك كتاب الباشا وبنود المعاهدة ، والتقرير المسهب الذي يقدمه لك حامل هذه الاسطر . وانا واثق انك سترتاح الى ما تم حتى الان الارتياح كله . فبين يديك الان معاهدة اكبر حلف عُرف في عصرنا هذا . وهي تحت تصرفكم . وقد رغب الي الباشا ، بعد ان يبلغه خبر توقيع سموك على المعاهدة ، ان اقصد بنفسي اليك لاتلقى بصددها اوامركم وارشاداتكم ، وافوز بمصادقة سائر الامراء المسيحيين عليها . فارجو بخضوع ان تتنازل لتأييدي في هذه المهمة الخطيرة ، حتى تتم ، كما بدأت تحت رعايتك ، فتخلد اسمك الشريف .

« حسب اشارتك سعيت لدى الباشا فقبل اشراك شاه العجم في هذا الحلف . فان لم اقصد اليه بنفسي أوفد هو اليه سفيراً يمثله ، مزوداً بكتاب منه ورسالة سموك اليه . وساعلمك بالامر في حينه ، فينضم هذا العاهل بكليته الى هذا الحلف الرامي الى تحطيم هذه الامبراطورية المتزعزعة . وانا اقيم لدى الباشا نزولا على رغبته ، وطمعاً في حمله على المضي في هذا المشروع الخطير .

« ولي ملء الامل ان طلبات الباشا ، المدونة في اللائحة المطوية هنا ، والتي وعدته باستجابتها لوثوقي من كرم سموك وحلمك ، لا تعيق السيد هيبوليت عن العودة الينا لان منتهى ما يتمناه الباشا ان يتكل على شيء راهن ، ليقطع كل علاقاته بالدولة العثمانية ويجاهر بالخروج على عدوة الطرفين .

« ولما كان حامل هذه الاسطر مكلفاً ان ينوب عني في بقيـة الشرح ، انحني لاثماً اذيال سموك واذيال مولاتي باخلاص واحترام ومحبة . والثم يدي الامـير المعظم وسائر اعضاء الاسرة الشريفة ، سائـلا المولى ان يبلغني بغيتي ، لمجـد سموك الاعظم وتعزيز النصرانية .

من حلب في ٣ تشرين الاول ١٦٠٧ خادم سموك المخلص الوضيع

ميخائيل قريع(١

ثانياً : المحالفة مع الامراء الاوروبيين ــ واليك تعريب نص المعـاهدة نقـلا عن الايطالية :

الختم الكبير « الهي بحق نبي وولي وكشات

باردي علي جبلاط ١٠١٥ »(٢

« باسم الله العلي العظيم

« هـذا ختم اسرة جامبولات ، الساميـة الشرف ، وختمنـا الحـاس نحن علي جامبولات(٣ امير مملكة سورية وحاميها . لان اغلبها خاضع باذن الله لسلطاننا .

« ان صاحب السمو ، غراندوق تسكانا ، قد اوفد الينا سفيراً الفارس ميخائيـل قريع من اعيان حلب ، فسلمنا كتابا منه ارتحنا الى مضمونه الارتياح كله ، لاننا لمسنا فيه رغبة سموه في ان يعقد معنا عهد صداقة كاملة . فنحن نعلن ان رغبتنـا في هـذه الصداقة لا تقل عن رغبة سموه .

« ولهذا السبب نتقبل بكل سرور صداقته المتينة،وانيقن ان يتقبل بدوره صداقتنا الغير المتزعزعة ، التي نقدمها له مع رباط المحبة الخالدة . آملين ان تفتح هذه الصداقة

---

١) مده و١٨ .

٢) تبدأ في ٩ ايار ١٦٠١ .

٣) Giampulat.

للفريقين باب فوائد جزيلة . لان السيد ميخائيل قريب وعدنا باسم سموه ان يحمل صاحب القبطة البابا بولس الخامس ، نائب الرب على الارض للمسيحيين ، وجلالة ملك اسبانيا وغيرهما من امراء النصرانية وملوكها ، على ان يولونا هم ايضاً صداقتهم وينضموا الى هذه المحالفة الرامية الى كسر شوكة الامبراطورية العثمانية ، وتعزيز بيت جنبلاط ، وعلى الاخص شخصنا .

« ولبلوغ هذه الغاية نعدهم بان نقوم بكل فتح يطلبونه منا ، مهما كان صعب المنال ، ونعاهدهم ان نزحف على اورشليم المدينة المقدسة وان نقاتل كل من يجسر على الوقوف في سبيلنا ، ونبذل الجهد كله للاستيلاء عليها . واثقين من النجاح باذن الله . ونعاهدهم ايضاً على مباشرة هذه الحملة حالما يتوصل سمو الغراندوق الى حمل الكرسي الرسولي وملك اسبانيا على توقيع عهد الصداقة والمحالفة معنا ، وتقديم ما يلزم لها من الذخائر والمؤن ، حسب الشروط التي وضعناها لهذه الغاية .

ثالثاً : فتح القدس — « ونترك تدبير هذا الامر لفطنة سمو غراندوق تسكانا ومروءته . ولا يخفى عليه ان الهمة التي نبذلها للقيام بهذه الحملة والتغلب على الصعوبات التي تعترضها ، تزداد على قدر المساعدات التي نتلقاها . فنكرر القول انه حالما يعلمنا سموه بقبول العاهلين المذكورين التحالف معنا ، ونتسلم صورة اصلية من المعاهدة ممهورة بتوقيعهما ، وتصل في الوقت عينه الذخائر التي طلبناها الى احد مرافيء مملكتنا حيث نضع نظاما وافياً لتسلمها ولرسو الاغربة والمراكب التي تقلها ، نقوم بدورنا بالزحف على اورشليم بدون تأخير ، حتى تبلغ بشائر فتوحاتنا الى بلاد النصرانية باقرب وقت .

« ولكي يثق الامراء المذكورون من جهودنا ومن رغبتنا الخالصة في خضد شوكة هذا العدو القدير ، وان امكن كسرها ، نعدهم بتخصيص احدى اساكلنا لاغربتهم ومراكبهم ، حسب الاتفاق الذي نعقده سابقاً مع سمو الغراندوق ، وان نقدم

لهم جميع التسهيلات والخدمات التي يتطلبونها منا لهذا الغرض . وبما ان اول حملة نقوم بها ستكون موجهة الى اورشليم المدينة المقدسة ، نعاهدهم على ان نترأسها بشخصنا . واملنا وطيد بالله ان نستولي عليها. ونحن نبدي منذ الان رغبتنا في ان يسكنها بأمان جميع المسيحيين ، ويمارسوا فيها بحرية تامة شعائر ديانتهم الكاثوليكية . وللراغبين من بلاد النصرانية ان يهاجروا اليها الحق في استيطانها . واذا نشب بينهم خلاف يكون مرجعهم القنصل التسكاني او وكيله المقيم في حلب.

« اذا قصد المسيحيون الى المدينة المقدسة ، ليس التسكانيون فحسب، بل جميع الخاضعين لسلطة صاحب الغبطة البابا بولس الخامس، سواء جاؤوا لزيارة قبر يسوع المسيح مخلصهم والههم، او سائر الاماكن المقدسة ، او لغرض آخر ، يعفون في دخولهم وخروجهم من كل الرسوم والضرائب التي تعوّدوا ان يؤدوها في عهد الدولة العثمانية التي كانت تملك هذه الاماكن بدون استحقاق ، لان سفير الغراندوق وعدنا باسم سموه ان يعوض علينا بدلاً من هذه الرسوم بمبلغ سنوي ، نتفق عليه مع سموه .

رابعاً : امتيازات تجارية — « وبما ان هذه المحالفة يجب ان تعود بالفائدة على الطرفين ، باطلاق حرية التجارة في الاساكل والمدن الخاضعة لسلطاننا ، حسب اصول المعاملات التجارية ، نأمر ان تُلحق البنود الآتي بيانها بالشروط المدوّنة اعلاه التي صادقنا عليها واقسمنا بالمحافظة عليها .

ولما كان صاحب السمو غراندوق تسكانا اول من سعى من الامراء الاوروبيين الى صداقتنا ومحالفتنا ، فقد خوّلنا الامة التسكانية ، وخاصة الفلورنتية ، الحق في في تعيين قناصل في مدن مملكتنا، يرجع اليهم سائر رعايا الدول الداخلة في الحِلف، سواء كان في الشؤون التجارية او غيرها ، كما سيلي شرحه ، الا اذا كان رأي سموه غير ذلك .

«لجميع الرعايا الفلورنتيين والتسكانيين ، الخاضعين لسمو الغراندوق، الحق بان يدخلوا ، بمراكبهم أياً كان نوعها ، اساكل مملكتنا، وان يسافروا منها ، وان .

يتجولوا اينا شاؤوا في المدن والاراضي الخاضعة لنا، ويتعاطوا كل اصناف البضائع وانواع التجارة، وان يعقدوا العقود في اسواقنا حسب الاتفاق بينهم وبين تجارنا، وان يبيعوا ويستردوا بأمان. وللأمة الفلورنتية الافضلية على غيرها من الامم الخاضعة لسموه.

« لسفراء سموه غير العاديين، الموفدين الينا، ولقناصل الامة الفلورنتية ووكلائهم وتراجمتهم وكتبتهم، ان يدخلوا جميع الاماكن الواقعة في مملكتنا، وان يخرجوا منها ويسكنوها بطمأنينة، دون ان يجسر احد على ازعاجهم، بل نرغب ان يلاقوا من الجميع الرعاية والمساعدة في جميع احتياجاتهم.

« على جميع الرعايا الخاضعين للملوك والامراء المسيحيين المتحالفين معنا ان يرجعوا الى قنصل الامة الفلورنتية، المقيم في حلب، في كل الخلافات التي قد تنشأ بينهم، سواء كانت لاسباب تجارية او غير تجارية، مدنية ام جنائية. وليس لهم ان يلجأوا الى غير محاكم، افرنجية ام وطنية. والاحكام الصادرة من هذه المحكمة غير قابلة الاستئناف، ومخوّلة كامل السلطة التنفيذية.

« مراعاة للصداقة التي ارتبطنا بها مع سمو غراندوق تسكانا، نمنح جميع الفلورنتيين، الذين يتعاطون التجارة في اراضينا، حق شراء البضائع الممنوعة او المهربة، وشحنها على مراكب سموه، او على اي مركب آخر دون ان يتعارضهم احد.

« اذا قبل تجارنا النقود التي يجلبها او يستجلبها الفلورنتيون من بلادهم، فلا يحق لامناء خزنتنا او للذين يضربون العملة العثمانية او الجمبلاطية ان يحجزوها بحجة احتكارهم ضرب العملة.

« ولا يجوز ايضاً حجز البضائع الخاصة باعدائنا، اذا كانت مشحونة بالاجر على مراكب سموه او على مراكب الفلورنتيين. هذه هي ارادتنا.

« ولا يجوز ايضاً فرض رسوم اضافية على البضائع التي يجلبها الفلورنتيون الى اساكلنا ومرافئنا، او التي يصدرونها منها، بحجة تخمينها باسعار تزيد عن الاسعار الموضوعة سابقاً على مثل هذه البضائع.

« على جميع التجار الذين يشحنون بضائع على مراكب فلورنتية، او يتاجرون تحت راية سمو الغراندوق ، ان يدفعوا رسوم القنصلية الى سفير سموه او الى وكيله ، او الى اي موظف يعيّنه لهذه الغاية .

خامساً : امتيازات مدنية — « واذا ارتكب احد الرعايا الفلورنتيين جريمة القتل او جناية ما ، او اختلف مع احد مواطنيه على امرٍ ما ، فلسفيرهم او لقنصلهم ان يحكم فيها حسب شرائعهم ، ولا يحق لاحد من موظفينا التعرض لشؤونهم .

« لا يجوز سجن القناصل الفلورنتيين المعينين في اساكل مملكتنا للسهر على راحة التجار، ولا وضع الاختام على منازلهم . واذا رفعت عليهم دعوى، او طولبوا بمال ، فليس للقاضي او الصوباشي او الكخيا او غيرهم من الموظفين العسكريين او المدنيين الحق في ملاحقتهم، بل يُرفع امرهم الى حضرتنا رأساً او الى ديواننا العام.

« نأذن للقناصل الفلورنتيين ولرعاياهم ان يشيدوا لهم كنيسة في حلب، حيث يوافقهم ، بعد الاتفاق مع المالك . ونوصي رعايانا بان يسهّلوا عليهم اقامة هذه الكنيسة حسب امنيتهم، وتعيين رهبان من ذويهم يتولون خدمتها حسب شرائعهم وطقوس المذهب الكاثوليكي ، دون ان يجسر احد على معارضتهم او مضايقتهم . ونرخّص ايضاً للفلورنتيين ان يشتروا او ان يستأجروا او يبنوا لهم منازل لسكناهم ومخازن ودكاكين لبضائعهم .

« ولما كان سمو الغراندوق قد اظهر لنا صداقة عظيمة، وسعى وراءها بواسطة سفيره ، وسبق الجميع في ما عرضه علينا من السعي في تعزيز بيتنا وحمل سائر ملوك النصرانية وامرائها على الارتباط معنا بالصداقة ، نرغب ان يكون لسفرائه وقناصله ووكلائهم ، اذا قصدوا الى قصرنا او الى قصور قاضينا وكاخيتنا وكبار موظفي دولتنا ، حق التقدم على غيرهم من سفراء وقناصل الدول المتحالفة معنا المقيمين لدينا ، وعلى بقية السفراء او القناصل المقيمين في حلب ، الا اذا شاء سمو الغراندوق خلاف ذلك .

« اذا شاء سفير غراندوق توسكانا ، او قنصله او وكيله من رعايا الامة

الفلورنتية ، الخروج الى المدينة ليمثل في حضرتنا ، او لاي داعٍ آخر ، او الخروج خارج المدينة لاشغاله وتزهاته ، فله الحق هو ورفيقه من الامة ذاتها ، والحارس الوطني الذي يرافقها ، ان يمتطوا الجياد ، دون ان يعترضهم او يزعجهم احد (١ .

« للفلورنتيين القادمين بالبضائع على مراكبهم الى اساكل مملكتنـــا ومرافئها ملء الحق في دخولها والخروج منها ، والتجول في اراضينا بأمان . واذا قذفتهم العاصفة واحتاجوا الى مساعدة فليمدّ رعايانا لهم يد المعونة . وليكن لقباطينهم وخدمة مراكبهم الاحترام والرعاية ، وليُقدّم لهم من مالهم كل ما يحتاجون اليه من زاد وخلافه .

« واذا ارتطم مركبهم بصخر وغرق ، يُعاد اليهم كل ما امكن تخليصه من البضائع والاسباب والاموال . وعلى الحكام وغيرهم من الموظفين ان لا يتعارضوهم بل يساعدوهم في احتياجاتهم ، ويخولوهم حرية الذهاب والاياب والاقامة بأمان ، الا اذا ارتكبوا ما يشين الآداب العامة .

« ليس للمحـــافظين والقواد والجنود التابعين لنا ، ولا لاحد من رعايانا ، ان يتعرضوا للتراجمة الفلورنتيين واتباعهم ، القـــادمين الى بلادنا بحراً أو براً للبيع والشراء ، اذا سددوا رسوم القنصلية حسب العوائد .

« اذا كان احـــد الفلورنتيين مثقلاً بدين ، فلا يطلب الدين الا منه او من ضامنه (٢ . ويشمل هذا الامتياز جميع رعايا سمو الغراندوق . امـــا مرجعهم فالقنصلية التسكانية .

« اذا توفي احد الفلورنتيين او التسكانيين ، او غـيرهم من الواضعين انفسهم تحت لواء تسكانا ، نرغب الى جميع مأمورينا ونأمرهم بان يمتنعوا عن التعرض لاسبابه وامواله ، بل يسلموها الى ورثته طبقـــاً لوصيته الاخيرة . وان مات بلا وصية فلينقلوها بحضور قنصله ورضاه الى دار احد مواطنيه ، دون ان يتعارضوهم بشيء

---

١) لم يكن للمسيحيين الحق في ركوب الخيل .
٢) كانت الطوائف المسيحية متضامنة مدنياً وجنائياً .

او يتدخلوا في امورهم .

«على الفلورنتيين وقناصلهم وتراجمتهم وجميع التابعين لهم ان يسجلوا عقود البيع والشراء وسائر المعاملات التجارية لدى قاضي العدل . واذا ادعى عليهم احد بدين ما ، فلا ينظر في دعواه الا اذا كان عقد الدين مسجلاً في سجلات محاكمنا . وان جاؤوا بشهود زور لا تُسمع شهاداتهم ، بل العمدة فقط على العقود المسجلة امام قضاتنا ، والا رفض الدعوى . وحذار من مخالفة اصول الشرع .

« على الحكام ان يحذروا من المكائد التي تُكاد على الفلورنتيين لتلصق بهم تهمة السب او الشتم ، توصلاً الى مضايقتهم وابتزاز اموالهم. فلا يسمحوا ان يُمسوا بسوء ، ولا يكترثوا للشكاوى التي تقدم عليهم لهذا الغرَض .

« اذا كان احد الفلورنتيين مديناً بمال ، او ارتكب جناية وهرب ، لا يُلاحَق سوى الذين ضمنوه او شاركوه في الجناية .

« لا يُجبر الفلورنتيون واتباعهم من المشتغلين بالتجارة او الصناعة ، على دفع الضرائب وسائر الرسوم ، سواء كانوا مزوجين او غير مزوجين .

« لا يجسرنّ احد على معارضة تعيين القناصل الفلورنتيين في اساكلنا او استبدالهم بغيرهم او الادعاء بالحلول مكانهم .

« اذا وقع خلاف بين الفلورنتيين فلسفير تسكانا او قنصلها الحق في فض هذا الخلاف ، حسب شرائعهم وانظمتهم ، دون ان يتعارضهم احد من مأموريننا .

« ولما كنا قد وافقنا على كل البنود المذكورة اعلاه ، البالغة الثلاثين ، ووافق عليها سفير سمو غراندوق تسكانا الذي ارتاح اليها الارتياح كله ، واكد لنا ارتياح سموه اليها ، فقد رأينا ان نمهرها بتوقيعنا ، ونختمها بخاتمنا الخاص . وسيذيلها ايضاً السيد ميخائيل قريع سفير سموه بتوقيعه وتوقيع كاتم اسراره السيد جرجي كروجر بعد ان شُرحت له. وقد وعدنا السفير المذكور ان يقدم لنا نسخة مطابقة لهذا العقد، ممهورة بتوقيع سمو غراندوق تسكانا وخاتمه ، اكراماً لنا وتوثيقاً لعرى الصداقة والمحالفة التي ارتبطنا بها معه . »

اما الخاتم السيفوي فقد نقش عليه :

توكلت على الله

العبد على

وهاك تعريب السطرين المكتوبين بالتركية في ذيل العقد :

« اننا قابلون بكل ما دُوّن في هذا العقد . فليوثق بعهدنا . خادم الله حاكم سورية علي بن احمد بن جانبولاد من سلالة عباس رضي الله عنه . »

واليك تعريب توقيعي ليونسيني و كروجر نقلاً عن الايطالية :

« انا هيبوليت ليونسيني كنت حاضراً هذين التوقيعين . »

« انا جرجي كروجر كنت حاضراً كما اعلاه (١ . »

---

١) مد ٥ و ١١٣ – ١١٧ .

الفصل الثالث

مهمة ليونسيني

١ – **مطالب علي باشا** . عاد ليونسيني الى ليفورنو حاملاً عقد المعاهدة، وكتابي علي باشا والسفير ، ومطالبهما ، واشاعة انكسار علي باشا امام الجيش العثماني ، وقد بلغته وهو في الطريق . فلم يذق الغراندوق خمرة الفوز الذي اصابه سفيره ، صافية . على ان الاشاعة لم تكن بعد حقيقة . وكانت مصحوبة بنبأ خروج علي باشا من حلب بعشرين الفاً من جنوده المدربين ، وانضمامه الى ثوار الاناضول . فلا بد للباب العالي ان يحسب لهذه القوى حساباً . فرأى الغراندوق ان يسرع الى انجاده بالاسطول والاسلحة ، عله ينهض من كبوته ، اذا تحققت الاشاعة ، او يشتت شمل الجيش العثماني ، ويصبح سيد الموقف اذا كانت كاذبة .

وذهب الغراندوق في آماله الى ابعد من هذا الحد . علّل النفس بان يستعين بقسم من جنود علي باشا ، او الامير فخر الدين ، لاعادة الكرة على قبرص ، حيث يتحصن رجاله واسطوله . فيهدد مواصلات الدولة العثمانية مع سورية ولبنان ، ويسند القائمين عليها .

واليك تفصيل هذا المشروع نقلاً عن الوثائق التي وقعت في يدنا :

اولاً : جواب علي باشا – واولها جواب علي باشا على كتاب الغراندوق . وهو بالتركية نسخه لنا صديقنا المستشرق اتوري روسي (١) ، احد اساتذة المعهد

(١ Dr. Ettore Rossi .

الشرقي في رومية .

باسم الملك الحق المعين

افتخار الامة المسيحية ومختار الملة العيسوية حضرت كراندوكه داتوشكانه اهداه الله الى طريق الصواب حضور مستوجب السرور لرينه دعوات صافيات وتكريات وافيات اتحافتد نصكره مخلصانه انها اولنوركه حالا وارد اولان نامة نامبكزده تحرير اولنان محبّت ومودّت وتسطير اولنان اشارات بالجمله مفهوم اولنوب خصوص مزبوره مشعر مفصل مكتوب وداد بوندن اسبق بو بابده وسيله اولان فضلي ايله ارسال اولنمش ايدى وحالا اول قولده ثابت قدم بيلوب ان شا الله الاعز والرحمان تخلف بوقدر وجانبكزدن كلاجك باليوز (١، كلدكد نصكره مزبور فضلي قريبع كه فرنكجه كواليو ميكيل (٢ انجلو كوندريلوب بابا واسبانيا جانبلرينه وارول معرفتكز ايله عهد لشوب عودت ايلية وبو جانبده هرنه مصالحكز وارايسه اشارت اولنه كه جان وباش ايله ادا سنه سعى اولنور باقي الدعا .

تحريرا في عاشر يوم شهر جماذي الاخر من شهور سنة سنة عشر والف .

علي ابن احمد (٣

وهاك الان تعريبه ، متوخين على قدر الامكان استعمال الالفاظ والتعابير الواردة في نصه التركي . وقد وجدنا له في الورقة ٧٣ من السجل عينه ترجمة ايطالية ، وضعها على الارجح ميخائيل قريبع ، ليرفقها بعقد المعاهدة وهي توافق تعريبنا معنى ، وتختلف عنه مبنى :

---

١) بدلاً من « باليوس » .

٢) سقطت كلمة « در » .

٣) M.5 f 74 .

« باسم الملك الحق المعين

« افتخار الامة المسيحية ومختار الملة العيسوية ، حضرة غراندوق تسكانا هداه الله الى طريق الصواب

« بعد تقديم دعوات صافيات وتكريمات وافيات (١، طالعنا ما ضمنتموه كتابكم من عبارات المحبة والاتحاد ، وما اشرتم اليه في فحواه اصبح قرين الافهام . كنا ارسلنا اليكم بواسطة فظلي (٢ كتاباً وفينا فيه الشرح بهذا الخصوص (٣ . ونكرر القول هنا اننا ثابتون على العهد ، وان شاء الله لا نغيّر . حالما يصل الينا السفير الذي توفدونه ، نعيد اليكم فظلي ثوربع الذي تسمونه بالفرنجية « ميكالانجلو » حتى اذا عقد العهود مع البابا ومع ملك اسبانيا قفل راجعاً الينا .

« مهما كان لكم من الاغراض في هذه الجهات ، افيدونا عنه . فنبذل الجهد كله في تلبيتكم .

حرر ١٠ جمادى الثاني سنة ١٠١٦ (٤ .

علي بن احمد (٥

ثانياً : هدايا الباشا — وطوى السفير كتابه على لائحة من الهدايا التي وعد بها علي باشا، وعلى لائحة اخرى باغراض طلبها لنفسه ولرفقائه. وهاك بيان اللائحة الاولى:

« خمس قطع من مدفعية الميدان ،

« الف قصبة بندقية، طول الواحدة خمسة اشبار، حسب الرسم الذي يحمله ليونسيني،

« مئة سترة حسب الشكل الدارج حالاً ،

« ثمانية اعمدة من الرخام الابيض والمشبّه ، طبقاً للرسم المرسل مع ليونسيني،

---

١) وردت هذه الديباجة بالعربية في الاصل التركي ، فاثبتناها حرفياً .

٢) مخائيل قريبع ، كما سبق القول .

٣) لم نعثر عليه .

٤) ٢ تشرين الاول ١٦٠٧ .

٥) مد ٥ و ٧٤ .

اربعة منها تستخدم لقاعدة سبيل ماء ،

« تمثال اسد من الرخـــام الابيض واضع يديه على رأس ثور ، بينما رجلاه تتحفزان للوثوب ، وقد فغر فاه لقذف المياه ،

« حلتان من المخمل المطرز الفاخر ، واحدة للباشا والثانية لزوجته ،

« برميل جبنة صغير من نوع مرسولينو (١ ،

« بستانجي ، ومدفعي ،

« اربعة اثواب من المخمل للكخيا ، لان تدبير امور الدولة راجع اليه ،

« ست غدارات مطعمة بالذهب ، من صنع هنغاريا ، طول الواحدة شبر وثمنها ربال هنغاري ،

« بندقيتان بلولب ،

« ثوب حرير ليوزع على خمسة او ستة من كبار الضباط ،

ثالثاً : مطالب السفير ورفقائه :

« رزمة ورق للكتابة من مصنع ليون ،

« قونة من ذهب عليها رسم الغراندوق ، مع سلسلتها الذهبية ،

« سيف وخنجر من الصنف الفاخر . وان لم يرغب سموه في اهدائها فليبتاعها ليونسيني لحساب السفير ،

« قبعة بالشكل الذي يستحسنه سموه ،

« ثوب قماش فاخر لاجل كبّوت، وكلسات،وغير ذلك من لبس ذاك العصر،

« لحم خنزير مقدّد،

« برميل نبيذ ،

« برميل سردين ،

« جبن ،

« لعبة (عروس) لولد صغير ،

---

١) Marsolino.

« فرشاة للثياب .

وطلب ليونسيني وكروجر قطعة قماش لتفصيل كسوتين لانفسهما (١).

٢ - **مشروع احتلال قبرص .** بالرغم من فشل اسطول الغراندوق في الحملة التي جهزها على قبرص، وفشل علي باشا في الصمود امام الحملة العثمانية البرية ، لم يفقد فرناندو الامل في احتلال هذه الجزيرة لاهمية مركزها في مشروع فتوحاته الشرقية . فكلف ليونسيني ان يقدم تقريراً يوضح فيه الخطة التي يحسن اتخاذها للوصول الى هذا الغرض بمساعدة علي باشا او حليفه فخر الدين . وهاك تعريب هذا التقرير :

اولاً : الاسلحة — « حال وصول الاسطول التسكاني الى الاسكندرونة، ينزل ليونسيني البر ويقصد تواً الى القنصل الفرنسوي صديقه، ويوفد بواسطته رسولاً الى الباشا والسفير يعلمهما بوصول مراكب الغراندوق حاملة الاسلحة التي طلباها منه ، ليدبر الباشا من يتسلمها ويوصلها اليه . وعلى قائد الاسطول ورجاله ان ينتظروا التعليمات التي تردهما من الباشا والسفير ويلبوا منها ما استطاعوا اليه سبيلاً .

« ولما كانت قد سرت في اوروبا اشاعة تراجع علي باشا امام مراد باشا الوزير العثماني، وهربه بعشرين الفاً من رجاله، فعلى ليونسيني ان يبلغه ان سمو الغراندوق، حالما سمع بهذا النبأ ، اسرع الى ارسال الاسطول بالاسلحة التي طلبها ، ليظهر له ما يكنه نحوه من المحبة الخالصة .

ثانياً : كيفية الاحتلال — « ولما كان سموه لا يريد ان تذهب رحلة اسطوله الى الشرق سدى، قد كلف ليونسيني ان يبلغ الباشا رغبته في احتلال جزيرة قبرص لسببين :

« اولهما ليضعف قوى السلطان بحرمانه هذه الجزيرة التي كانت ملكاً للمسيحيين، وتخليص سكانها النصارى من نيره . والثاني ليتمكن من اتخاذ قاعدة للدفاع عن الباشا حليفه ، لانه ينوي ان يترك فيها اسطولاً قوياً في وسعه ان يرد هجمات

---

١) مده و ٧١ ، ٧٢ .

الاتراك عن سعادته وعرقلة مواصلاتهم ، اذا عنّ لهم مضايقته .

« فيترتب على السفير ان يقنع بفطنته الباشا ليمد سموه باربعة او خمسة آلاف محارب ، لقاء مكافأة مالية يتفق معه عليها ، تسلّم اليه حالما يتم تجهيز رجاله لنزول مراكب سموه . على ان يعين عليهم قائداً من اخصائه ، ويمونهم بما يلزم من الزاد في سفر البحر .

« فلينزل الملاحة وليمعنوا فيها نهباً وتخريباً ، وليواصلوا الزحف حتى نيقوسيا . وهي واقعة لا محالة بين ايديهم لخلوها من حامية وتحصين . وليقبلوا في صفوفهم كل المسيحيين الوطنيين الراغبين في الانضمام الى هذه الحملة ، من اروام وغيرهم ، وليتركوا لهم ما تصل اليه ايديهم من الغنائم .

« واذا تم لهم الاستيلاء على فاماغوستا ، انسحبوا من الجزيرة وعادوا الى المراكب ، حاملين ما غنموه في نيقوسيا ، بعد ان يعطوا المسيحيين الذين رافقوهم حصتهم منه . والاوفق ان يمتنعوا عن نهب فاماغوستا . ولدى وصولهم الى الاسكندرونة يجدون مندوباً من سموه مكلفاً توزيع المكافآت على كل من القواد والضباط والرجال الذين اشتركوا في هذه الحملة ، وشكرهم على مروءتهم .

ثالثاً : المكافآت — « حالما يتم الاستيلاء على قبرص ، على السفير ان يقصد الى الاسكندرونة حيث يجد مراكب سموه بانتظاره لتنقله الى تلك الجزيرة . وعند وصوله اليها يجرى له استقبال فخم بصفة كونه نائب ملك تسكانا وقبرص . ولينتظر هناك حتى وصول امير تسكانا ، ليتوّج عليها ملكاً باسم والده . ويُرقّى ميخائيل قريبع الى رتبة فارس ، ويُعطى له لقب مقدم (١ اكبر مقاطعة من تلك الجزيرة براتب ... (٢ . ويُمنح ايضاً السيد كروجر ، كاتب امراوه ، لقب فارس ، وراتباً يسمح له بان يعيش في بحبوحة . اما ليونسيني (كاتب هذه السطور) فيترك امر مكافآته لرأي سموه . ويُعيّن للباشا المبلغ الذي يقع الاتفاق عليه مع السفير ،

---

١) Priore.

٢) النقط، في الاصل، تدل على ان المبلغ لم يعيّن بعد .

يُقدّم له سنوياً ما دام حياً ، ومن بعده لورثاته .»

رابعاً : مصلحة الباشا في المشروع — ثم يسرد التقرير ، بين الاسباب التي تدعو الباشا الى مساعدة الغراندوق في حملته، ان البنادقة يسعون الان للاتفاق مع الباب العالي على استعادة هذه الجزيرة . «فان فازوا بأمنيتهم اتفقوا مع الاتراك على الباشا، وحرموه الفوائد المالية والسياسية التي ينتظر اجتناءها من محالفة الغراندوق، لان على مراكب سموّه ان تمر بهذه الجزيرة في طريقها الى سورية ، وينقطع امل الباشا من التوسع في سورية واحتلال القدس والقطر المصري، كما صرح سعادته للوفد. واذا اعتذر الباشا ان ليس لديه قائد كفؤ لهذه المهمة ، فالسفير مخائيل قريبع في بغداد شقيق يشبه الباشا شبهاً غريباً في هيئته وحركاته . وهو ذو بأس وحنكة في الحروب . فان بعث اليه السفير بوفد يستدعيه لا يتأخر بتاتاً عن تلبيته . ولما كان وطنياً وشجاعاً لا يمانع الباشا في تقليده هذا المنصب ، ويسير الجنود تحت لوائه بارتياح وحماسة .

«وفي حلب سنجق يُدعى نعمه شلبي ، صديق حميم للباشا، وقريب السفير (١) فيحسن تكليفه مهمة ما في هذه الحملة،لان السكان يميلون اليه لبأسه ودماثة اخلاقه، ويسهل على شقيق السفير ان يتفق واياه . فان تسلم هذان الشخصان قيادة الحملة ارتاح الباشا الى القيام بها ، وضمن لهما النجاح الذي يعود بالفخر عليه وعلى السفير واهله .

«اما اذا كان الباشا لا يريد او لا يقدر على القيام بها فليُعرض امرها على الامير فخر الدين (٢).»

ويشير صاحب التقرير على الغراندوق «ان يحافظ على صداقة بطريرك جبل لبنان ويجيب على كتابه (٣).»

---

١) في الاصل Cugnio ، وهو يطلق على اولاد العم والعمة والخال والخالة.
٢) راجع ما جاء في التقرير بهذا الخصوص في فع ص ١٦٨ .
٣) مده و ٩٥ — ١٠١ .

٣ – **الكتب.** وحمل ليونسيني في عودته الى سورية ثلاثة كتب . الاول والثاني من الغراندوق الى سفيره والى الباشا جواباً على كتابيهما السابق نشرهما . والثالث كتاب وجهه البابا بولس الخامس الى علي باشا .

اولاً : جواب الغراندوق الى السفير – وهاك تعريب الاول :

« وصل الى هنا الفارس هيبوليت ليونسيني دون تباطوء . وسلمنا رسالتك وبقية الوثائق والتقارير . وشرح لنا كل ما تعلق بهذه الشؤون شرحاً وافياً . فتحققنا ان مساعيك الحكيمة بلّغتنا الهدف . الذي كنا نتوق اليه . فاغتبطنا بهذا النجاح . وقد اوفدنا شخصاً الى رومية ليفاتح الحبر الاعظم في هذا المشروع حسبما كتبنا الى سعادة الباشا . وسيطلعك الفارس ليونسيني على الجهود التي قمنا بها في هذا السبيل . وقد اظهر قداسته تمام الاستعداد لمفاوضة ملك اسبانيا في الامر . ونحن نبذل من طرفنا الجهد كله لتثمر هذه المفاوضة الثمرة المرغوب فيها . ونفيدك عن النتيجة في حينها . وغب توقيع المعاهدة،عليك ان تقصد الينا حاملاً مصادقة سعادته عليها . ونحن لا نتخلى عن مساعدتك في نفقات السفر . واحيلك في بقية ما ترغب الاطلاع عليه الى الفارس ليونسيني الذي زودناه بهذا الخصوص جميع التعليمات الضرورية . ومني لك السلام المقرون بالوداد . اما سائر الاغراض التي طلبتها فترسل اليك باول فرصة .

عن ليفورنو في ... كانون الثاني ١٦٠٨ (١).

ثانياً : من الغراندوق الى علي باشا – واليك تعريب جواب الغراندوق على كتاب الباشا الاخير :

« ايها السيد السامي الشرف ،

« ان كتابك، المنبيء عن تمتعك بالصحة والانشراح ، قد سرّني السرور كله . فاحمد الله الكلي القدرة على هذه النعمة ، واتمنى لك دوامها .

« وشحت الى اوروبا اشاعة ، حبذا لو ظهر بطلانها ، انك بعد ان تغلبت على

---

١) مده ر ٤٦ . رقم التاريخ ترك في المسودّة على بياض .

مراد باشا الوزير و كبّدته خسائر جسيمة في اليوم الاول من اصطدامك به ، لم يتسنَ لك في اليوم التالي ان تجني ثمرة النصر ، لتفوقه عليك بعدد الرجال . فتركت قلعة حلب ، بعد ان انفقت تحصينها وتموينها ، ولجأت الى احدى مدن ولايتك ، او الى شاه العجم . فحملني هذا النبــأ على الاسراع في ارسال اربعة غلايين من اسطولي الحربي ، حاملة اليك المدافع والبنادق التي طلبتها مني . وهي مسلحة احسن تسليح ، على امل ان تستعيد بها نشاطك ، لانها تلقت الاوامر بضايقة اعدائك المضايقة كلها ، وتقطع عنهم المدد والزاد .

« وقد اعدتُ على هذه المراكب الفارس لبونسيني ، وحمّلته اليك جوابي هذا ، ليؤكد لك اني قد باشرت المساعي في سبيل المشروع . فاوفدت الى رومية سفيراً خاصاً ، خلاف سفيري المقيم فيها ، ليفاتح قداسة الحبر الاعظم بشأن المحالفة التي عرضتها عليك ووافقت عليها ، على يد الفارس مخائيل قريبع . وقد بلغني ان قداسته اعارها الاهتمام كله ، وابدى استعداده التام لمفاوضة ملك اسبانيا في سبيلها . وسأبذل من جهتي غاية الجهد لتسير هذه المفاوضة سيراً حثيثاً نحو الغاية . ولي كبير الامل ان تسفر عن النتيجة المطلوبة . فاياك ان تفقد شجاعتك ، وتغلّب على النحس بثبات الجنان وقوة الارادة . قف غير هياب في وجه الاتراك الظلمة ، فاننا على تمام الاستعداد لمؤازرتك .

« ان جواب ملك اسبانيا لا بد ان يتأخر ، لبعد المسافة وخطورة المشروع . بيد اننا لا نألو جهداً في ملاحقته . ويسرني ان اعرف انك مرسل عن قريب الفارس مخائيل للمصادقة على ما يتم عليه الاتفاق مع هذين العاهلين (١ . »

ثالثاً : من بولس الخامس الى علي باشا — وكتب البابا بولس الخامس الى علي باشا ، نزولاً على رغبة الغراندوق ، ما يلي تعريبه عن اللاتينية :

« الى علي باشا جانبولات ، امير مملكة سورية وحاميها

« بولس الخامس البابا

« ليحل عليك نور النعمة الالهية ، ايها الرجل الشريف . لقد سمعنا عن المروءة

---

١) مد ٥ و ٤٢ .

التي دفعتك ليس فقط الى خلع نير الاتراك ، بل الى اشهار السلاح في وجههم. ولما كانت فطنتك لا تقل عن البسالة التي أبديتها ، فقد عرفتَ كيف تكتسب عطف الجميع على موقفك هذا الشريف ، فلا تستغرب اذاً ورود هذه الاسطر اليك قبل ان نتلقى منك كتابة ، وقد ضمنّاها سلامنا العاطر عليك ، وشواعر محبتنا لك ، حاثين اياك على مواصلة الاعمال الباهرة التي باشرتها . وحالما يتسنى لنا ان نمد لك يد المساعدة ، فعلناه بغاية الارتياح. وسننتهز اول فرصة تتاح لنا لاتمام امنيتنا هذه . نسأل المولى المتعال ان يبلغ مزاياك الى محجة الكمال ، وان يبعث الى ذهنك بنور الحقيقة ، ويسهل لك دائماً التقدم في السبيل الشريف الذي اتخذته تمجيداً لاسم الله الاعظم وتخليداً لاسمك .

« اعطي في رومية بقرب مار بطرس ، تحت خاتم الصياد، في اول شباط السنة ١٦٠٨ ، وهي الثالثة لحبريتنا (١ ».

٤ – **التعليمات السرية**–وسلم الغراندوق الى ليونسيني تعليمات سرية ليتقيد بها هو والسفير وقائد الاسطول . واليك تعريبها :

« بعثة هيبوليت ليونسيني . اول شباط ١٦٠٨ .

« التعليمات الصادرة اليك ، ايها الفارس ليونسيني، في اول شباط ١٦٠٨.

« عُد على المراكب القاصدة الى الشرق الادنى لتبلغ الباشا جوابنا ، حسب فحوى الرسالة التي تحملها اليه . على ان تضيف اليها ما يلي :

« لما بلغتْ الى بلاد النصرانية بواسطتك اشاعة تراجع الباشا امام القوات العثمانية ، الامر الذي نأمل ان لا يكون صحيحاً ، حركنا حبنا له على تجهيز اربعة غلايين ، تلتحق بالثلاثة التي يقودها الفارس جوادانيي (٢ ، خادمنا العزيز ، لكي تجوب تلك السواحل وتشد إزره في اعماله الحربية ، رفعاً لشأنه تجاه اعدائه ، ومحافظة على سمعته وكرامته. وقد امرنا قائد الاسطول ان يبذل الجهود في عرقلة

١) مد ٥ و ١٣٣ .

٢) Guadagnie .

وصول المدد والزاد الى اعدائه ، طبقاً للتعليمات التي يتلقاها من سعادته .

« ويبيّنْ له كمية المدافع والبنادق التي ارسلناها اليه مع هذه الغلايين ، ليعيّن المكان الذي تنزلها فيه ، وطريقة تسلمها ، فيتسنى له استخدامها في اغراضه . وقد اسرعنا بارسال هذه الاعتدة وسلّحنا الغلايين على عجلة دون انتظار النتيجة التي تسفر عنها المفاوضات مع الحبر الاعظم الذي الفيناه بغـــاية الاستعداد لابرام المعاهدة ، ومفاتحة ملك اسبانيا في شأنها .

« واقصدْ الى باشا حلب والى ميخائيل قريع ، ونبّه هذا الاخير على انفراد ان امثال هذه المفاوضات يجب ان تبقى سراً لا يطلع عليه سواكما . ثم اشرح للباشا ، بحضور السفير ، التعليمات التي تبلّغتها بالطريقة التي خبرتها. وأكد له اننا لا نتوخى ، من الحاحنا عليه بالثبات في موقفه العدائي ضد الاتراك ، سوى مصلحته وتوفيقه ورفعته ، الامر الذي يتحققه بما قمنا به حتى الان في سبيله ، دون ان ننتظر ما يستقر عليه البابا وملك اسبانيا ، لان قرارهما قد يستغرق وقتاً طويلاً .

« ومع اننا نتولى بنعمة الله بلاداً واسعة ، ونملك قوات عظيمة ، لا يسعنا ان نقدم له من المساعدة ما في مقدرة الحبر الاعظم وملك اسبانيا تقديمه . فعليه ان يفصح عن مطالبه من هذين العاهلين ، لنبلّغها اليهما في اثناء مفاوضاتنا معهما بشأن المحالفة . فنحن نقوم لمصلحته بما استطعنا اليه سبيلاً ، غير اننا لا نقوى على تحمل العبء كله وحدنا .

«ونكرر القول ان قداسة الحبر الاعظم قد اظهر من الاستعداد لمفاوضة ملك اسبانيا ما جعلنا نعلل النفس بأهمية المساعدات التي تعدّ لسعادته .بيد اننا لانستطيع ان نقطع له بها عهداً. فان اظهر الشجاعة والثبات في موقفه العدائي ضد الاتراك ، حمل البابا وملك اسبانيا على عقد المعاهدة معه وبسط حمايتهما عليه .

« وبلّغه انه لو تم لنا فتح فاماغوستا، وتثبيت اقدامنا في الجزيرة، لاسرعنا الى الاتصال به ومدّ يد المساعدة اليه ، حتى يتمكن بدوره من تثبيت اقدامـــه في مملكته ، ويسهّل علينا شد إزره في مشاريعه وفتوحاته ضد الاتراك ، وحمل البابا

وملك اسبانيا والنصرانية اجمع على مساعدته في تعزيز شأنه وضمان مستقبله .

« وقد علمنا منك ومن سفيرنا انه أسف لفشلنا في الحملة على قبرص . فنريد ان تعبّر له عن شكرنا له على هذه العاطفة النبيلة ، وان تؤكد له اننا نبادله اياها بكل جوارحنا . واحفظ ما يقوله لك في هذا الصدد . واجتهد ان تستكشف مملكته وقواته لتعرف الى اي مدى يمكننا ان نستفيد من محالفته عند الحاجة، دون ان تدخل معه في التفاصيل .

« ولا يستغربنّ احجامنا حتى الان عن ارسال مراكبنا وتجارنا الى ثغوره وبلاده . فهؤلاء التجار لا يسعهم ان يجازفوا باموالهم ، في اثناء الحروب والقلاقل التي تتخبط بها بلاده الان ، لاسيما بعد ان بلغتهم اشاعة انكساره . بيد انهم اذا وثقوا من خمود هذه الاضطرابات ، ومن تقدّم المفاوضات في سبيل المعاهدة التي وضع سعادته أسُسها ، فتحوا باب هذه المتاجرة على مصراعيه ، بعد ترتيب البنود التي تلزم لحسن سيرها ، والتي اشار اليها سعادته في الوثيقة المرسلة الينا .

« واعتذر له اننا لم نتمكن من ارسال بقية الاغراض التي طلبها منا لبعدنا عن المدن التي تصنع فيها . أما الاسلحة التي شحنّاها اليه فقد كنا اودعناها مخازننا في بيزا وليفورنو . بيد اننا نعده بارسالها في اول فرصة .

« وقبل ان تقصد انت والسفير الى علي باشا تشافها مع الفارس جواداني ، واطلعاه على هذه التعليمات ، وخذا رأيه في الخطة التي يحسن السير عليها ، طبقاً للاخبار التي تردكم عن حالة الباشا . فان فقدتم الامل من نهوضه ، امتنعتم عن الذهاب اليه وتسليمه الاسلحة . وان وجدتموه بحالة تمكنه من الانتعاش والثبات، وانه يرجى من قيامه كسر شوكة الاتراك وعقد محالفة مع امراء النصرانية ، قصدتم اليه (١ .

« على كل حال نريد ان تزوروا باسمنا الامير فخر الدين ... (٢. »

---

١) مد ٥ و٢٥ ، ٣٦ .

٢) نشرنا ما يخص فخر الدين من هذه الوثيقة في فع ١٦٨ ، ١٦٩ .

الفصل الرابع

النكبة

بينما كان الحلفاء الثلاثة ، علي باشا جنبلاط وفخر الدين المعنى وفرناندو الاول غراندوق تسكانا، يمنّون النفس بالاستقلال والتبسط والبحبوحة على حساب الامبراطورية العثمانية المتقلقلة، اذا بالسعد يخدمها، فضربت والي حلب ضربة قاضية واستعادت هيبتها في سورية والاناضول ولبنان . فتهيبها فخر الدين وسائر العصاة، وتظاهروا بالطاعة ، واخلدوا الى السكينة. وحوّل الغراندوق شطر وجهه عن علي باشا الى حليفه الامير فخر الدين ، وارتبط معه بعلاقات ورثها عنه ولده قزما الثاني وحفيده فردناندو الثاني . واليك الآن كلمة عن أفول نجم علي باشا .

١ - نكبة علي باشا. لدينا عن هذه النكبة التي نزلت به وبحلب مدينته وثائق : أهمها تقرير وافٍ بالغرض وضعه ميخائيل قريع وارسله الى الغراندوق قبيل سفره الى العجم ، وآخر وجهه جرجي كروجر كاتب اسراره الى رفيقه ليونسيني .

وكان هذا قد ركب البحر في الخامس من شباط ١٦٠٨(١)، عائداً الى الشرق، مزوداً بالتعليمات والوسائل التي نشرناها، وبكتب توصية الى جواداني قائد الاسطول التسكاني الذي كان ينتظره في قبرص ، والى بوتلماوس مونتو الهولندي ، وكيل الغراندوق السري في هذه الجزيرة ، والى قنصلي فرنسا في طرابلس

١) على قول ماريتي ، ص ٧٣ .

والاسكندرونة (١ .

وبعد ان بارح تسكانا تلقى الغراندوق اخباراً تحقق منها كسرة علي باشا ، فقد وصل الى تسكانا رجل ايطالي ترك حلب في اول كانون الاول ١٦٠٧،فادلى بما رآه وسمعه (٢ . وتسلم الغراندوق كتاباً من الاستانة مؤرخاً في التاسع من الشهر عينه ، يصف الاحتفالات التي امر السلطان باقامتها في هذه العاصمة، ابتهاجاً بنصرة جيشه على جمبلاط باشا (٣ .

بيد ان تقرير ميخائيل قربع ، الحامل تاريخ ٦ كانون الاول ١٦٠٧ ، لم يُبقِ له مجالاً للشك ، وجـاء وافياً خطيراً . وقد كتب كثير من فقراته بالارقام ، وجدناها مفسّرة بين الاسطر . فاليك تعريبه عن الايطالية .

اولاً : خروج علي باشا للقاء العدو — استهل تقريره بقوله : « لا شك ن سعادتك قد شعرت بالارتيـاح لدى وقوفك على كتاب الباشا اليك ، وعلى بنود المعـاهدة التي فزتُ بها منه ، فضلاً عن عريضتي الاخيرة ، وعن التقرير المستوفي الشرح الذي قدمه لسموك هيبوليت ليونسيني . فرأيت كيف اني، بنعمة الله وأيده، قمت بمهمتي احسن قيام ، ووضعتُ اساسات ذلك الصرح العظيم.

« وفي السادس من تشرين الاول ، بعيد خروج ليونسيني من حلب ، بلغنا ان الوزير وصل الى أدنه وعلى أهبة السفر الى باياس . فارتـأى الباشا ان الوقت قد حان للقاء الجيش العثماني ، واصدر امره الى عساكره بان ينظموا صفوفهم ويدبروا امورهم . واخذ هو بدوره يتأهب للخروج . ولما سمع السكان بامر الرحيل عمدوا كعادتهم الى الدوران في المدينة والتعدّي على كل من يلتقون به . فأقفلت جميع الدكاكين ، وانزوى كل انسان في بيته . بيد ان هذا لم يمنع السكان من الرجوع الى عوائدهم القبيحة ، فاخذوا يقتحمون الدكاكين والمنازل، ويمعنون فيها نهباً.

---

١) مد ٥ و ٣٩ ، ٤٣ ، ٩٢ — ٩٤ .

٢) مد ٥ و ١٣٠ ، ١٣١ .

٣) مد ٥ و ٤٩١ ، ٤٩٢ .

ولما سمع الباشا بهذه القلاقل امر قائد السكبان وعمه حيدر بك وغيرهما من القواد بان يجوبوا المدينة مسلحين ، ويوقفوا هذه الشرور . فنزلوا عند اوامره ، وانزلوا العقاب الشديد بكثير من العساكر .

« وبعد ان سافر القواد عاد السكبان الى اشنع ما كانوا عليه، حتى اضطر الباشا ان يخرج اليهم بنفسه ، ويقتص من كل من وجده يرتكب هذه التعديات . وقد قطع رأس اثنين منهم بيده . ودامت هذه الفوضى ستة ايام متوالية ، حصر في اثنائها كل امرىء منا همه في منع التعدي عنه والتحصن في بيته والتزامه. وبعد ان رتب الباشا اشغاله وترك لكاخيته ولبقية الموظفين الاوامر اللازمة ، خرج في الثاني عشر من تشرين الاول بثلاثين الف جندي مدرّب على الحرب . فاستراحت المدينة من شر هؤلاء الوحوش الضارية ، وانصرف الكاخية الى تجهيز القلعة وتموينها بكل ما رآه لازماً للدفاع عنها وتحمّل الحصار ، مهما بلغت شدته ومدته . غير انه لم يبلغ منتهى امنيته . فقد كان ينقصه الاهم ، كما سيأتي الكلام (١.

ثانياً: الكسرة — «وفي هذه الغضون كانت اخبار تتوارد متناقضة، تارة سارة وطوراً محزنة ، حسب الاشخاص الذين كانوا يتبلغونها . انبأتنا مرة ان الباشا ذهب ليخضع للوزير ، واخرى انه تغلب عليه. ومن قائل انه قصد الى فتح دمشق، ومن آخر قال خلاف ذلك . فكانت الاخبار تتزاحم وتتناقض اكثر من جرائد البندقية . وهي اقرب الى الكذب منها الى الحقيقة . حتى اذا جاء اليوم الرابع والعشرون علمنا ان في الثاني والعشرين منه ، لما رأى جنود الباشا انهم اصبحوا على مقربة من الجيش العثماني، عزموا على منازلته بالرغم من ارادة سيدهم . فقصدوا اليه بنظام . ولما لم يكن بانتظارهم انهزم مرتين ، وتكبد خسائر جسيمة ، مع تفوقه عليهم بالعدد .

« ولما مُني العدو بهذا الاندحار انسحب الى قمة هناك ، كان قد اخفى فيها مدافعه ، مستدرجاً جنود الباشا ، حتى اذا اقترب من مدفعيته ، انشطر شطرين

---

١) يعني المدافع .

واطلق عليهم نيران المدافع ، فذعروا . ولما لم يعودوا يبصرون العدو لكثافة الدخان ، عادوا ادراجهم . فاعمل العدو في اقفيتهم وهزمهم جميعاً . فمن كان لديه حصان نجا بنفسه هرباً ، والباقون سقطوا في حومة الوغى. فقتل من الرجال ثمانية الاف ، وخسر العدو في الموقعتين السابقتين عدداً لا يقل عن هذا . وقعت هذه المعركة يوم الاثنين، على بعد يومين من حلب ، وراء كلّس ، بالقرب من مكان يدعى « العمق » (١ .

ثالثاً : نهب المدينة — « وفي اليوم الذي تلقينا فيه هذا النبأ ، وصل علي باشا ودخل المدينة بقسم من عساكره ، ليدبر اموره وامواله ويهرب . وفي اليوم التالي وصلت بقية العساكر ، وكانت المدينة قد اقفلت ابوابها في وجوههم فلم يتمكنوا من دخولها ، بل عمدوا الى المنازل الواقعة خارجاً عنها واخذوا في نهبها . فتحصن كل في بيته وسد بابه بالحجارة ، ودافع عن نفسه بما لديه من الاسلحة . ومن لم يملك سلاحاً استخدم الحجارة . فقتل من المهاجمين عدد يذكر ، وقتل السكان

---

١) قال المحبي (٣ : ١٣٩): « وخرج الوزير من الاستانة ومعه من العساكر الرومية ما يزيد عن ثلاثمائة الف بين فارس وراجل ... ولما تلاقى الفريقان برز عسكر ابن جانبولاد الى المقاتلة يومين ولم يظهر لاحدى الفئتين غلبة على الاخرى. ففي اليوم الثالث التحم القتال حتى كاد ان يكون عسكر البغاة غالباً . وكان من اعاجيب الامر ان وزيراً يقال له حسن باشا الترياقي وكان في جملة المعسكر السلطاني رتب عسكر السلطان وقال قاتلوا البغاة الى وقت الظهر . فاذا حكم وقت الظهر فافترقوا فرقتين فرقة منكم تذهب لجانب اليمين واخرى تذهب لجهة الشمال واجعلوا عرصة القتال خالية للاعداء وحدهم. وقد اخفى المدافع الكبيرة في مقابلة العدو وملأها بالباورود . فلما تفرق عسكر السلطان ظن حزب ابن جانبولاذ انهم كسروه فبالغوا في اتباع عسكر السلطان الى ان كادوا يخالطونهم . فلما قربوا وخلت لهم عرصة القتال اطلقوا عليهم المدافع ولحقوهم بالسيوف الى ان ازاحوهم عن خيامهم و كسروهم كسرة شنيعة وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ».

بعض النساء والرجال . وكان بالقرب منا ، في حي اليهود ، منزل لم يتمكنوا من دخوله فاحرقوه بكل ما فيه . وكانوا اذا اقتحموا البيت نهبوه عن بكرة ابيه ، وعرّوا سكانه وضربوهم ضرباً مبرحاً ليدلوهم على مخبأ نقودهم . واحياناً كانوا يوثقونهم ويقودونهم الى السوق حيث يبيعونهم بيع السلع .

« هذا ما ارتكبه الجنود الذين ظلوا خارج المدينة . اما الذين دخلوها ففاقوهم فظاعة . حطّموا ابواب الدكاكين واقتحموا كثيراً من المنازل، ونهبوها . دامت هذه الحال طيلة النهار والليل حتى ظهر اليوم التالي الى ان رتب الباشا اموره كلها وكلف قائده جمعه بك حماية القلعة بعد ان وضع فيها حامية مؤلفة من خمسمائة سكماني، وخرج مع العساكر الذين اتوا بمعيته قاصداً الى عينتاب . فنجت المدينة من هؤلاء الضواري .

رابعاً : الانتقام من السكمان – « وما ان خرج الباشا حتى تألب الاهالي على السكمان المتأخرين، وكانوا يرجمونهم بالحجارة ، فجرحوا كثيراً منهم جروحاً بالغة . ونال حيدر بك، عم الباشا ، حصته . ولو لم يهرول هارباً لرجموه وقتلوه بلا محالة . بيد ان جواده الاصيل خلص حياته من موت محتم . وفي الايام التالية كان الاتراك يخرجون الى المدينة ، وكل من وجدوه من السكمان صرعوه بلا رحمة ، وشربوا دمه . ونزعوا من كثيرين قلوبهم واكبادهم وشووها واكلوها تشفياً . وقطعوا من بعضهم المرارة وعلقوها في منازلهم عبرة وذكرى . اما جثثهم فكانوا يلقونها الى الكلاب فتنهشها وتلتهمها . وتزيّا بعض السكمان بازياء الافرنج او اليهود او النساء محاولين الهرب . بيد انهم عرفوهم واماتوهم شر ميتة . »

٢ – **مراد باشا في حلب** . وتابع قريع تقريره سارداً ما شاهده في حلب بعد احتلالها ، وما عرفه عن مصير علي باشا بعد خروجه منها ، فقال :

اولاً : احتلال حلب – « وفي التاسع والعشرين من الشهر عينه وصل الوزير الى مسافة ميلين من حلب وعسكر هناك تحت الخيام . وارسل نائبه ليتولى زمام المدينة . وفي غرة تشرين الثاني دخلها الباشا الذي عيّنه عليها . وفي اليوم ذاته

دخلها الوزير ليرى اذا كان حماة القلعة ميالين الى تسليمها. وكانوا قد عثروا على بلوكباشيين من عساكر الباشا، مختبئين، فاوفدوهما الى سكان القلعة بكتب عاهدهم فيها الوزير ان يعفو عن حياتهم وحياة جميع من معهم، اذا سلموها. ولما لم يجيبوه وطد النية على اخذها بالقوة. وبعد ان اصدر اوامره بهذا الصدد عاد الى مخيمه. فقصد رجاله الى القلعة وانصرفوا الى ردم الخندق وحفر الالغام لنسفها. وفتشوا عن مجرى الماء المنساب اليها ليفسدوه او يقطعوه. وما ان شاهدهم المحاصرون حتى عمدوا الى المدافع والبنادق فاطلقوها عليهم. حتى خشينا ان يطول امر الحصار.

« بيد ان الوزير اوفد من يوهمهم بما يعدّه من المعدات الهائلة لفتح القلعة، مع انه لم يكن لديه سوى بضع مدافع. ولما كانوا هم ايضاً بحاجة الى المدافع باتوا يشكّون في النجاح فضلاً عن انهم مطبوعون على الخيانة. ولذلك كلفوا ثاني يوم بلوكباشياً ان يتفق مع الوزير على تسليم القلعة، على ان يؤمنهم على ارواحهم واموالهم، وان لا ينزل بهم أذية البتة. اما الوزير فلعلمه ان فتح القلعة بالقوة يكلفه غالياً، أقسم لهم بما ارادوا، فسلموا في اليوم التالي، اي في الرابع من تشرين الثاني. وفي السادس منه دخل الوزير القلعة. ولما رآها خالية من المدافع وضع فيها واحداً من المدافع القليلة التي جلبها معه، وأعاد اليها الحامية القديمة التي اخرجها علي باشا، وسلحها. وامر ان يختموا جميع المخازن، حيث اودع علي باشا المؤن وبعض الاسباب، لينجيها من النهب. وهكذا فعل بسرايه وقصور جميع ذويه، واستخرج بعدئذ منها نقوداً وحلى وجواهر وتحفاً لا يُحصر عددها، لاسيا من قصر عمه حسين باشا جمبلاط، حيث عثر على كمية وافرة من الذهب والجواهر والحلي خاصة والدة علي باشا وزوجاته، كان خبأها تحت الارض وبنى فوقها.

ثانياً: العصاة في الاناضول — واما علي باشا فخرج من حلب بعشرة الآف فارس وخمسة الآف راجل، قاصداً الى عينتاب. وحال وصوله اليها نهبها عن

بكرة ابيها ، واستنزف من سكانها اموالاً طائلة. وكان جاويش قادم من الاستانة بكتابات واوامر سلطانية، ولما مر من هناك جرّدوه مما يحمله وارسلوه الى الوزير ، ليبلّغه انهم ينتظرونه هناك . فقصّ عليه ما جرى له واخبره ان جيش الباشا يبلغ عشرين الفاً ، منهم على الخيل ، والباقون يمتطون الدواب .

« وانتقل علي باشا من عينتاب الى ملاطية ، فدخلها بخيله ، مزوّراً باسم الوزير كتابات واختاماً مفادها انه قادم من طرفه . فصدقه اهلها وقبلوه بطيبة خاطر . وما ان استقرّ به المقام حتى استدعى وجوهها وطلب اليهم ان يحضروا اليه اربعين الف سكوت لدفع رواتب جنوده . وهددهم، ان ابوا ، بنهب المدينة . فخافوا وقدموا اليه كل نقودهم. وهو الان مقيم هناك مع اربعين الف مقاتل، على ما يُقال.

« وقد جهز الوزير بعد وصوله الى هنا حملتين على العصاة الذين كانوا يلاحقونه من كرامانيا . ولما علم ان كثيراً من السكان لجأوا الى القرى المجاورة لحلب ، امر جنوده ان يقطعوا عليهم الطرق ويقتلوا من وجدوا منهم، او يقودونه الى هنا. واذ شاهد القرويون المدد حملوا هم ايضاً السلاح، وقتلوا من السكان عدداً وافراً. وقتل الوزير بدوره جميع الذين ساقوهم اليه . وهم يأتونه يومياً بمن يقع منهم في ايديهم فيصرعهم. حتى يُقال ان عدد الذين قتلهم بعد وصوله الى هنا يواري عدد الذين سقطوا في حومة الوغى . ففي يوم واحد انزل الوزير الى المدينة اثنين واربعين منهم ، فقطّعوهم إرباً إرباً امام اسوار القلعة على مشهد من الجميع ، عبرة لمن تحدثه نفسه باشهار السلاح في وجه السلطان .

« اما الحملتان اللتان وجهها على عصاة الاناضول فقد ابادوهما عن آخرهما. وكانت الاولى مؤلفة من عشرين الفاً، والثانية من اثني عشر الفاً. فاضطر الى تجهيز غيرهما في الاسبوع الماضي ، قبل ان قسماً منهم راكب على العصاة ، والآخر على علي باشا ليزيحه عن ملاطية ، حيث ينوي ان يقضي فصل الشتاء . وسنرى اذا كانوا يفلحون . ويكفي القول ان جيش الوزير ، الذي كان يعدّ سبعين الفاً ، اكثرهم من الرجال الهزيلين الجبناء ، يذوب الان رويداً رويداً . ومقدار كبير من الخيل

والبغال والجمـــال هلك من الجوع ومن البرد الشديـد الذي داهمهم في زحفهم . وما زال يموت منهم يومياً . والجميع يقولون انه لو ثبت الباشا ستة او ثمانية ايام دون ان يحارب لاضطر الوزير ان يعود ادراجه . وان انكسار جيشه عائد الى خلوه من المدافع . فالشجاعة لم تنقصه . ورجال الوزير انفسهم يقرّون ان جيش الباشا قاتل ببسالة جعلهم يشكون في الفوز، بل كانوا يفكرون بالانسحاب والعود من حيث اتوا ، لو لم تخلصهم المدفعية من موقفهم الحرج .»

ثالثاً : الوفود والهدايا – « في الحادي عشر من الشهر الجاري وصل الى هنا ابن جفاله الذي كان متولياً دمشق ، ومعه سبعمائة فارس . وفي العشرين منه ارسل الامير شديد ، ملك العرب ، هدية الى الوزير مؤلفة من ستة جياد اصائل ، وستين جملاً، وثلاثة آلاف خروف مخصي ، وخمسمائة حمل شعير وقمح، وستة آلاف قرش من النقود . وفي الرابع والعشرين اوفد الامير يوسف (١ ولده الى الوزير حاملاً الهدايا وزهاء مئة الف سلطاني من النقود .

« وفي اليوم عينه وصل انكشارية الشام الذين التقوا في طريقهم بقول آغاصي من كبار العصاة ، كان الامير فخر الدين ارسله لنجدة علي باشا . غير انه وصل متأخراً فوجد الطرق مسدودة لملاحقة الباشا . ولما عاد ادراجه اصطدم بالدمشقيين قرب حماة ، فسلم اليهم بدون قتال ، هو وخمسمائة سكماني ، بين فارس وراجل . وجاء الى هنا ليقدم خضوعه هو ورجاله للوزير ، فقابله ببشاشة ، وخلع عليه ووعده بالعفو عما صدر منه . وسنرى كيف يفي بوعده لهؤلاء السكمان . ويقال ان ما يحمله على التظاهر بالحلم طمعه في القبض على علي باشا رئيس جميع العصاة . فهو لا يقصد غيره . ومتى اصبح في قبضة يده اهلك هذا وذاك . واملي بالله ان يخفق في ما يدبره له .

« وفي السادس منه ورد الى هنا من الاسكندرونة نبأ ظهور قارب في الثغر

---

١) سيفا ، والي طرابلس .

يفتش عن غليون انكليزي حمّله الامير فخر الدين هدايا كثيرة ارسلها الى الوزير(١.
غير ان الغليون فُقد ، ولا يدري احد اين توجه . ولما بلغ الامير الخبر قبض على
جميع تجار الافرنج في صيدا ، وهددهم بالقتل ان لم يظهروا الغليون . فارسلوا هذا
القارب الى الاسكندرونة والى باياس ليتحققوا من وصوله . فلم يجده لا في هذا
الثغر ولا في ذاك . واصبح التجار في خطر . وهناك اشاعة مفادها ان الامير يجهّز
بعض المراكب للهرب الى ايطاليا ، اذا عنّ للوزير ان يركب عليه ، لانه يتحاشى
مقاتلته .

« وفي غرة كانون الثاني دخل الوزير المدينة ليقضي فيها فصل الشتاء ، ويُصلح
امورها، لان الجميع يوجسون خوفاً من خروجه وعودة علي باشا اليها بقوات تفوق
الاولى ، فيعيث فيها فساداً . ولما شاع اخيراً ان الوزير تلقى امراً من السلطان
بالسفر الى هنغاريا ، ذهب اعيان المدينة اليه ورجوه ان لا يتركهم ، لانه لو فعل
لعاد علي باشا وامعن فيهم نهباً وقد يقتلهم عن بكرة ابيهم . وكان قصدهم من هذه
المواجهة ان يجسوا نبضه ليقفوا على حقيقة مقاصده .

« وشاع ايضاً ان الثوار في جهات بروسه ، القريبة من الاستانة ، عادوا الى
ضم صفوفهم ، بعد ان بعد عنهم الوزير ، فاصبحوا اربعين الفاً . وهم يعيثون في
تلك الجهات فساداً . ويقال ان في نيتهم الاستيلاء على مدينة بروسه المذكورة. فان
فازوا امست الاستانة في خطر كبير .

« لقد تعين ابن جغاله والياً على بغداد ، فارسل في الثامن والعشرين من تشرين
الثاني نائبه ليتسلمها . بيد ان البعض يقولون ان واليها القديم يأبى الخروج منها ،
وان حاميتها ، المؤلفة من الاسرى ، تفضل الالتحاق بشاه العجم من الخضوع لغير
واليها المعزول .

---

١) بعث اليه مع ولده علي والحاج كيوان بهدايا تقدر بثلاثمائة الف قرش بين
حرير ونقود (فع ، ١٦٩) . فاقره الوزير على ولاياته باسم ولده المذكور . وكان
ذلك في رمضان ١٠١٦ ، الذي يبدأ في كانون الاول ١٦٠٧ (د ١٨٧ و خ ٦).

« جاء في نبأ وارد من بلاد العجم ان ملكها يستعد للحرب استعداداً عظيماً،
فقد بلغه ان السلطان امر وزيره مراد باشا بالزحف عليه ، بعد ان يرتب شؤون
هذه الجهات .

« عرفت سموك قبلي كيف نجحت حملة بونا في بلاد المغرب (١ . فالكتب التي
وردت اخيراً من مرسيليا تنبيء ان البرتون الانكليزي والمركب التركي ، اللذين
كانا في تلك السواحل ، قد اسرا معاً . فجاءت الغنيمة اوفر مما فازت به مراكب
سموك في بونا .

٣ – نكبة قريع . « اما ما دهمنا من الاخطـــار والشدائد في اثناء ذهب
السكبان المدينة مرتين ، منذ وصول الوزير حتى الان ، فـــلا يسعني شرحه لئلا
يستولي الملل على سموك . فكأني اتعرض لوصف دموع النزاع ولوعاته . فاترك
الحكم في ذلك لمن وجد نفسه في مثل هذه الظروف . والحق يُقال انها لفرصة سانحة
تحملنا على تقديم آيات الشكر لله تبارك وتعالى ، الذي نجانا من هذه المحن .

اولاً : الاستنطاق – « فقد شاع انني جلبت معي للباشا من بلاد النصرانية
ثلاث بندقيات (٢ ، وانني اشرت عليه ان يعيد خشب المدافع المكسرة . واني ،
بعد خروجه من حلب ، ساعدتُ قيّمه على تموين القلعة ، واوصيتُ على ما يلزمها
من الزاد . واشياء غير هذه طرقت مسامع الوزير . فاستدعاني اليه ، وحقق معي
عن هذه التهم واحدة فواحدة ، فاظهرت له اني لستُ بشيء ، فأنّى لي ان اقوم
بكل هذه الاعمـــال . وبيّنت له اعذاري ، ودافعت عن نفسي ما استطعت الى
الدفـاع سبيلاً . واظهرت الدهشة من تجاسر اعدائي على لصق هذه التهمات
الفظيعة بي،وبرهنت له انها افتراءات صادرة عن الحسد والخبث الكامنين في صدور
هؤلاء اليهود الملاعين . وليس بينهم من يستطيع اثبات ما يدعيه علي .

«وبما ان الوزير يعرفني حق المعرفة، وكان صديقاً حميماً لوالدي واهلي، أمن على

---

١) قامت بها مراكب الغراندوق Bona .
٢) لعله يريد ثلاثة آلاف .

اقوالي ، بل عرض عليّ مساعدته ، ونفحني بلقب مهمدار السلطان وبراتب اتقاضاه سنوياً ، وخوّلني بعض الامتيازات لاسرتي ، واعفاني من رسوم الحرب وغيرها .

« بيد ان كل هذه المظاهر كانت خداعاً . وانتهى بي الامر ان احد المقربين اليه عيّن لي شاويشاً يلازمني . فكان هذا يسائلني ، تحت ستار حجج واهية ، عن سبب مجيئي الى هذه البلاد برفقة رجلين من الافرنج ، عاد احدهما الى بلاد النصرانية ، وبقي الآخر معي . فاجبته بما حضرني . فلم يقتنع . وقادني موثوقاً الى احد البيوت حيث كان ينتظرني اربعة جنود ، وثقوني وشرعوا يسومونني من العذاب الواناً لابوح بسري . فاحتملت بعون السيد له المجد كل هذه الآلام . ولما رأوا عجزهم عن ان ينزعوا السر من صدري ، وكانوا قد ملّوا من تعذيبي ، تركوني وفرضوا علي غرامة خمسمائة قرش . ولما لم اكن املك خمسمائة قرش ولا خمسين ، درت ابحث عمن يقرضني هذا المبلغ ، فلم افلح ، بل كان يتبرأ مني كل من اقصد اليه . اخيراً وقعت في السيد تيموتاوس موبّان (١ الفرنسوي ، الرجل الشريف المحبوب من الجميع. هذا لما علم بمصيبتي اشفق علي وقدم لي المبلغ . فنجوت بكرامتي وحياتي واهل بيتي . ولولاه لانتابتني شدائد لا تقاس خطورة بما سبقها . فاصبحت مديناً له بكل حياتي .

ثانياً : السفر الى العجم — « ولما خبرته صديقاً مخلصاً كريم النفس ، بحتُ له بسر مجيئي الى هذه البلاد التعسة ، وتحدّثت له بلباقة عن مقاصدي ، لأنجو نهائياً ، قبل ان ينفضح امري ، من الاخطار التي تنتظرني ، واتوجه الى بلاد فارس لاتمم مهمتي لدى ذلك العاهل ، لاسيما وان القافلة التي كانت عازمة على السفر منذ ثلاثة اشهر توقفت للحروب الناشبة هنا . وتوصية سموّك ما زالت معي . لذلك عقدت النية على التوجّه الى تلك البلاد ان شاء الله ، احرى من ذهابي الى الامير فخر الدين او الى غيره ، لانه ما زال هو وبعض الاشخاص في كفة الميزان ، لا يدري على اي شيء يعتمد .

---

١) Moyen

« ومما شدد عزيمتي على السفر الى تلك الجهات ان علي باشا كتب سراً الى يزبك العجمي ، احد امنائه في هذه المدينة ، يظهر رغبته في ان اقصد باقرب وقت الى الشاه وافاتحه بما دار عليه الحديث بيننـــا مراراً ، واوثق بينهما عرى الصداقة والمحالفة . فاما ان ينجده بالرجال ، او على الاقل يهاجم الاتراك من جهته بكل قواته . وهو من جانبه يفعل ما يستطيع اليه سبيلا . فقد أقسم بالثأر ولو كلفه حياته. وألح في الكتاب عليّ لملاحقة هذا الامر ، فلا احد من ذويه يسعه ان يقوم في هذا السبيل بما اقوم به انا . فعليّ ان ابادر حالاً الى العمل وان لا اتركه بهذه الشدة . وهو يحفظ لي هذا الجميل ومستعد لمكافأتي عليه اذا ’كتب لي النجاح . وكان بوده ان يبعث لي بنفقات السفر،لولا ’بعد المسافة واخطار الوصول الى هنا. واطلعني العجمي المذكور على الرسالة وهي ممهورة بخاتم الباشا .

« ولما اطلعت السيد مويّان على فحواها ، وعلى كتاب توصية سموك لي ، سألته ان يقرضني ايضاً ثلاثمائة قرش تسددها سموك له . فنزل عند رجائي بارتياح ، مدفوعاً برغبته الصادقة في خدمة مصلحة النصرانية التي انا ذاهب في سبيلهـا ، وخدمة سموك التي تطوع لها حتى سفك دمه في كل مـــا تأمره به ، ورغبةً في تخليصي من الاخطار والاهوال التي انا واقع فيها لا محالة لو بقيت هنا . فاتوسل الى سموك ان تحول اليه باقرب وقت مبلغ ثمانمائة قرش على السادة بشيوليني في مرسيليا ، طبقاً للسند الذي وقعته له . واذا رأيت ان تستخدمه في هذه الجهات لاغراضك ، وجدته خادماً اميناً مخلصاً في كل المهام التي تكلفه القيام بها. وهو على كل حال سيكتب الى سموك كلما اقلع مركب من هنـــا الى بلاد النصرانية ، ليطلعك على جميع ما يحدث في هذه الجهات حتى رجوعي (١ الذي اؤمل بالله ان يكون قريباً . فانا عازم على ان لا اضيع الوقت في تلك الاصقاع ، لاعود منها باقرب وقت .

---

١) تجد له في السجل عدة تقارير ورسائل موجهة الى فردناندو الاول وولده قزما اللذين اتخذاه ، بعد هذه الحادثة ، عميلاً سرياً لهما .

« اما الاغراض التي وعدتُ بها سعادة الباشا فأرى ان تجهّز له ، مـــا دام عاقداً النية على الاخذ بالثأر . فالوزير لا يسعه ان يتوقف هنا طويلاً ، على رأي البعض ، لان عليه ان يكون في الربيع القادم في هنغاريا او في بلاد العجم . فيفتح الطريق لعودة علي باشا . والامل معقود بالله ان يستعيد كل ما خسره . ومهما كان الامر فسموك اعرف مني بما يحسُن عمله ، فاترك لفطنتك امر التدبر في هذه الامور وفقاً للانباء التي تبلغك .

« سنرحل من هنـــا ، ان شاء المولى ، بعد ثلاثة او اربعة ايام على الاكثر ، برفقة ثلاثين مسافراً ، ميممين بغداد ، لان بقية الطرق ما زالت مسدودة . وسنقصد من هناك الى هدفنا في اول فرصة تسنح ، اذا وجدنا رفـاقاً . والا اضطررنا الى استئجار عشرة او اثني عشر نفراً مسلحين يوصلوننا الى وراء الحدود . ومتى وطئنا ارض فارس أسرعنا الى مقابلة الشاه حيث حلت ركابه .

« وفيما انا اتأهب للسفر تراني مسروراً للخروج من هذه الورطة . وقد دبّت فيّ رغبة شديدة للعمل تلبيةً لاوامر سموك ، وتحسيناً لحالنا . واملي بالرب ان يبارك مساعينا الائلة لمجده تعالى وجلّ ، الذي اسأله ان يحفظ سموك بكامل الصحة والانشراح . واختم منحنياً لثم الاذيال الشريفة بمحبة واخلاص ، واذيال سمو الغراندوقة وسمو الامير ، انا وكاتب هذه السطور جرجي .

عن حلب في ٦ كانون الاول ١٦٠٧ .   ميخائيل قريبع (١

٤ — *نكبة حلب* . اما تقرير كروجر فلا يختلف عن السابق سوى ببعض التفاصيل الراجعة الى محنة قريبع ونكبة حلب . ولما كانت هذه النكبـــة صفحة محزنة من تاريخ هذه المدينة ، وان تكررت في العهد البائد ، رأينا ان نعربها للقراء ضاربين صفحاً عما ورد في التقرير السابق :

اولاً : نهب المنازل — « صدّر كروجر رسالته الى ليونسيني بتهنئته ، لانه نجا من الاخطار التي احاقت بها ، ويتمتع برؤية وطنه تحت انظار سمو الغراندوق .

---

١) مدة و ١٢٤ — ١٢٧ .

وبعد ان روى له ما ارتكبه السكمان قبل خروجهم من حلب ، « سالبين كل من التقوا به بفظاعة فاقت ما اقترفوه قبل سفرهم الى عينتاب ، كما يتذكر جيداً، خرجوا من المدينة واللعنات تنصبّ عليهم من افواه الجميع .»

وبعد ان وصف عودة الباشا على اثر الاندحار وانصراف عساكره الى النهب والتخريب ، قال : « واسمع كيف نجوتُ بعونة الله من خطر كبير . دخل حارتنا (١ ما يزيد عن مئة خيال ، وعمدوا الى تحطيم الابواب . ولما رأوا الحي ضيقاً والابواب قصيرة ، لا يسع خيولهم دخولها ، ومسدودة من الداخل بالحجارة المبنية ، عادوا ادراجهم ومروا بالمنزل حيث كانت غرفتي ، دون ان يحركوا ساكناً . ولو انتبهوا الى سهولة اقتحامه لنهبوه بدون عناء . وكنت وحدي في الغرفة العليا ، فقبعت مكاني خائفاً . والويل لي لو دخلوها . وما ان اجتازوا الحي حتى هرولت الى منزل ميخائيل قريع وانتقلت اليه مع اسبابي .

« وكان باب الحي قد اغلق وراءهم فجاء غيرهم وتمكنوا من تحطيمه واخذوا يقتحمون المنازل . واول بيت ولجوا اليه كان ذاك الذي خرجتُ منه منذ هنيهة . فحملوا كل ما وجدوه فيه ، وسلبوا ضيفنا العجوز المسكين . ثم نزلوا الى غرفتي وكسروا بابها فوجدوها فارغة .

« وجاء غيرهم الى منزل ميخائيل قريع وحاولوا اقتحامه . ولما رأوا بابه مصفحاً بالحديد (٢ ، ومسدوداً بالبناء ، عالجوا حديد نافذة الغرفة السفلى ، التي بجانب البواب ، حيث كانت المرأة المسكينة ام قرمزية (٣ . بيد اننا كنا

---

١) يعني على الارجح حارة « الصليبية » الآهلة بالمسيحيين من كل الطوائف، وكانت خارجاً عن المدينة المعروفة حتى اليوم باسم المدينة .

٢) ان اغلب بيوت حارة الصليبية موضوعة لتتحمل حصاراً . فالباب الخارجي ضيق قصير مصفح مثبت بمسامير غليظة ، ووراءه دهليز ضيق ينتهي بباب ثان يفتح على فناء سموي ، اصطفت حوله غرف المنزل .

٣) Chermosi

تنتظرهم باربع بندقيات ، فهزمناهم باطلاق الرصاص وبرشق الحجارة . فتحولوا الى دار جارنا . بيد ان اصحابه ، لما شاهدونا من وراء الحاجز نرميهم بالحجـــارة والرصاص ، تشجعوا ودافعوا عن انفسهم على قدر طاقتهم . وامتاز بينهم الكاهن الارمني، فقد اصاب رأس احد بلوكباشية السكمان، وكان يحاول الدخول الى الدار ، بحجر شج رأسه ، فخرّ على الارض كالميت .

ثانياً : نهب الكنائس والحريق - « وما امكن تخليص كنائس حارتنا . فقد نهبوها . وهي خاصة الطوائف الاربع (١ . وتابع السكمان طريقهم فحرقوا بيتاً بكل ما فيه انتقاماً من اصحابه الذين سدوا بابه ليمنعوهم من الدخول . وخلاصة القول ان الناظر لم يكن يشاهد سوى مظاهر البؤس والخراب والنار والدخان المتصاعد من الابنية المهدّمة ، ولا يسمع سوى العويل وصراخ الاستنجـــاد وقرقعة تحطيم الابواب . وكنا نخشى ان يمسي كل شيء طعمة للنار . وقد قتل السكمان كثيرين من الاهلين . وفي غضون هذه الفوضى نهب منزلا السيدين يوسف وبرناردينو وكيلي كنيسة الافرنج . وهكذا كان نصيب السيد يعقوب القادم من بلاد العجم . وجده السكمان في الفراش فسلبوه كل شيء وتركوه عرياناً . اما والد معتوق ، الذي كان غائباً في طرابلس ، وخطر للسيد ميخائيل ان يستخدمه في الرحلة التي تعرفها ، فلم يكتفوا بسلبه ، بل اوثقوه وساقوه الى السوق ليبيعوه . فاستفكه ولده باربعين قرشاً .

« وزبدة القول ان الاضرار التي الحقها هؤلاء الاشقياء بالاهـــالي اكثر من ان تحصى . منهم من حملوا اولاده وساقوه معهم ، ومنهم من اوسعوه ضرباً ، واثخنوه جراحاً ، وتركوه بين الموت والحياة . دام هذا الحال من الصباح حتى المساء الذي خرج فيه هؤلاء اللصوص حاملين ما وصلت اليه ايديهم .

« هذا ما ارتكبه السكمان الذين لم يتمكنوا من دخول المدينة . اما الذين

---

١) كانت كنائس الموارنة والارمن والنساطرة في حارة الصليبة ضمن نطاق حوش واحد وبوّابة واحدة .

دخلوها مع الباشا ففاقوهم شراً. اقتحموا المخازن والدكاكين ونهبوا كل ما وجدوه فيها . وهكذا فعلوا بالمنازل ، حتى اضطر الافرنج الى سد ابوابهم من الداخل بالحجارة المبنية ، والدفاع عن انفسهم بالسلاح . دامت هذه الحال ليلتين ونهاراً ونصف نهار ، الى ان دبر الباشا اموره ، وسلم جمعه بك القلعة ، ووضع فيها حامية مؤلفة من خمسمائة سكماني. وسافر ببقية العساكر قاصداً عينتاب التي نهبها حال وصوله اليها .

« فتصور كم من الاخطار اجتزناها في هذا الوقت العصيب . وكان خوفنا اعظم من مجيء الوزير للاسباب التي لا تخفى عليك . وفكّرنا الف مرة في الهرب . وانّى لنا ذلك وايدينا فارغة من المال ، والطرق مسدودة في وجهنا من العصاة الهاربين من الجيش القادم . فاضطررنا الى التريث، ووطدنا النية على ان نتقبّل بصبر ما اعدّه الله لنا من الاطايب والمرائر . اما الوزير فوصل في التاسع والعشرين من الشهر المذكور وارسل نائبه فتولى المدينة . واخذ القلعة بعد ثلاثة ايام لا غير دون ان يلقى صعوبة او مقاومة .

٥ – **عقاب قريع** . « واستدعى جميع اتباع الباشا فعاقب بعضهم بالغرامات ، والبعض الآخر بطرق غيرها .

اولاً : التعذيب – « لما اطلعه يهوديان ملعونان على امر السيد ميخائيل قريع ، استدعاه ودقق في التحقيق معه فارتاح لحديثه فاخلى سبيله . لاسيا انه كان يعرف والديه وكثيرين من اقاربه . وذهب الى ان عرض عليه مساعدته في حاجته ، كما تقف عليه من التقرير السري الواصل اليك. بيد ان هذا السرور تبدد سريعاً، لانه وضع ثالث يوم تحت مراقبة شاويش كان يرافقه كظله ويأكل ويشرب ويبات عنده . وتظاهر له بالصداقة والاخلاص ليستخلص سره. وامتحنه في شتى الامور. فكان يريد ان يعرف سبب عودته الى حلب برفقة رجلين من الافرنج، عاد احدهم الى بلاد النصرانية وبقي الآخر معه .

« ولما عجز عن معرفة شيء من اسراره قاده يوماً الى احد البيوت ، حيث

رتب له اربعة عساكر اوثقوه واخذوا يذيقونه من العــذاب اشكالاً والواناً ليستخرجوا سره . ولما وجدوا ان هذه الطريقة ايضاً لم تبلغهم مآربهم فرضوا عليه غرامة خمسمائة قرش فدفعها مرغماً دون ان يسألهم عن السبب ، لان حجة الظالمين محض ارادتهم . وبلغت عذاباته حداً لا تطيق النفس تحمله . فاني اقسم لك انه خرج منها قطعة لحم ميّت. وقد كشف حاله للسيد موبان ولغيره من الاصدقاء. فان لم تصدقني لا بد ان تصدقهم .

ثانياً : الخيانات — « وبعد وصول الوزير ببضعة ايام جاؤوه بخزندار الباشا . قبض عليه احد اعوان الوزير وقاده اليه . وهو الذي ادى لك تلك الخدمات . فبتنا في وجل عظيم للاسباب التي تعرفها . لاسيما بعد ان خان مولاه ودلّ على مخابىء امواله الوافرة ، فضلاً عن اسرار كثيرة فضحها له . واؤكد لك ان هذا الخائن اوقع في قلوبنا رعباً يزيد عن غيره من الخونة، بعد ان خلنا انفسنا احراراً على اثر تلك الشدائد . ولكنا نحمد الله الذي ارسل لنا مع الشدائد الصبر عليها . وعليك ان تشكره شكراً خاصاً على نجاتك من هذه الاخطار . فقد جاء سفرك نعمة عليك وعلينا .

« والحق يقال ان كل امرىء أمن على نفسه من شر السكمان الاشقياء بعد وصول الوزير ، واصبحت الطرقات ايضاً مأمونة للذهاب اينما شاء . غير اني لا اكتمك خوفي من ان يرتكب جنوده ، بعد اشباع بطونهم ، شروراً افظع مما اقدم عليه السكمان . فقد وصلوا الى هنا خائرين جائعين ، واخذوا الان في مضايقة السكان ومنهم من لا يتحمل رؤية نصراني . اما الوزير واعوانه فمنصرفون الى ابتزاز الاموال من هذا وذاك بعلة وبغير علة . فيمكننا القول ان ذئباً ذهب وحل مكانه ذئب اكبر منه ، ويرافقه دزينة من الذئاب متشابهين جلداً

واخلاقاً ... (١) »

عن حلب في ٩ كانون الاول ١٦٠٧ خادمك المخلص

جورجي كروجر (٢

٦ – آخرة على باشا جمبلاط . بيد ان كسرة جمبلاط باشا وعودة ولاية حلب الى حضن الدولة لم تكونا كافيتين لاعادة الطمأنينة الى قلب السلطان، لان جمبلاط لجأ الى الاناضول واتفق مع عصاتها ، واخذوا يعيثون في البلاد فساداً حتى اصبحت الاستانة نفسها في خطر . ولم تكن حالة الجيش العثماني المنهوك القوى تساعد على مواجهة كل هذه الثورات ، فضلاً عن اخماد ثورة العجم . فكان لا بد من الاتفاق مع العصاة باي طريقة كانت.

اولاً : العفو السلطاني – وهاك تعريب رسالة سرية وردت الى الغراندوق من سفير انكلترا في الاستانة ، وكان احد جواسيسه فيها ويدعى توما جلاور (٣ :

« الداعي لكتابة هذه الاسطر تقديم واجبات الاحترام لسموك ، والاعتذار من تأخري حتى الان عن اطلاعك على حوادث هذه الجهات . والسبب الاول راجع الى صعوبة الوقوف على الحقيقة ، مع قربي من مصادرها ، لان هؤلاء الباشوات كان دأبهم اختلاق الاكاذيب ليهدئوا روعة الشعب من الشرور الفظيعة التي كان يرتكبها الثوار دون رادع ، وقد كاد الرعايا يثورون على ولاتهم من جرائها .

« واخبرك الآن ان جمبلاط ، باشا حلب السابق ، ورئيس هؤلاء العصاة، كان قد طلب العفو ، ومُنحه بقسم كتبه السلطان بيده ، وذيّله المفتي الاكبر وغيره من الباشوات بتواقيعهم ، وبعثوا به اليه بصحبة بستانجي باشا الذي تلقى الاوامر

---

١) بقية الرسالة تحيات من معارف ليونسيني في حلب .

٢) مد ٥ و ١٢٨ – ١٢٩ .

٣) Tommas Glewer

بان ينزل عند جميع طلباته ، لاستعدادهم التام الى تلبيتها . وبناء على هذه الوعود والعهود احضره بستانجي باشا امام السلطان . فقابله ببشاشة . ولعله قصد من ذلك استدراج امثاله الى الطاعة . اما مصيره فلا يعرف حتى الان ، لان الاقوال فيه متضاربة . وعندي ان هذا الباشا لو علم بما آلت اليه هذه الامبراطورية من الانحطاط والوهن لما خضع البتة. وان لم يراقبوه مراقبة شديدة لا يبعد ان يهرب.

« اما الثائر قلندر ، الذي احرق من بضعة ايام قسماً من مدينة بروسه بمساعدة جنبلاط باشا ، فقد لجأ الى جبل غير بعيد ، حيث قضى عشرين يوماً . ثم تركه منذ ستة ايام وجاء الى ازمير ، اعني نيقوميدية ، وهي اقرب الى الاستانة .

« كتب الينا قناصلنا من حلب ان مراد باشا السردار يتولى الحكم فيها بعدالة ، وان البلاد متمتعة الان بتمام الراحة والامن ، ويلاقي التجار فيها من المعاملة احسنها .

« هذا ما استطعت التقاطه من الاخبار . اذا لم يصل اليك جسبارو ترجماني (١ قبل هذه الرسالة ، فارجو سموك ان تفهمه انني اصبحت بغنى عنه . »

عن القسطنطينية في ٢٤ كانون الثاني ١٦٠٧. خادم سموك

توما جلاور السفير الانكليزي (٢

ثانياً: مصرع علي باشا – وقد تمكن ميخائيل قريبع من السفر الى بلاد العجم والاتصال بملكها واقناعه بالمحالفة مع الامراء الاوروبيين . وله في هذه المهمة الخطيرة عدة تقارير بعث بها ، من السنة ١٦٠٧ حتى السنة ١٦١٢ ، الى فردناندو الاول والى قزما الثاني ولده وخلفه ، وهي ذات اهمية خطيرة في تاريخ تلك البلاد ومعرفة احوالها ورجالها ، تؤلف سفراً نفيساً لو شاء المرء جمعها (٣ ، وقد جمعناها

---

١) لعله جسبارو الكرداني الذي كان له شأن مع فخر الدين . راجع عنه فع ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ .

٢) مد ٧ و ٤٠٨ .

٣) مد ٥ و١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٢ ،

بكاملها كترجمة لمواطننا ومساعيه . ثم اقنعنا احد كبار المستشرقين الايطاليين بنشرها وسلمناه قسماً منها فبقي لديه .

ونكتفي الان بالاشارة الى تقرير كتبه فريع من مدينة كسبين الى كاتم اسرار الغراندوق بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٦٠٨، يخبره فيه عن «وصول سبعة الاف من الثوار الاتراك ، لينضموا الى الجيش العجمي ويحاربوا في جانبه السلطان . وهم فلول من عصاة دحرهم الوزير . اما ما خص علي باشا صديقنا فقد اشيع انه قصد الى الاستانة ليرمي الطاعة للسلطان الذي قابله بعطف واغدق عليه الانعام ومنحه لقب وزير وولاه على مقاطعة في حدود هنغاريا. وقد حزن الكثيرون من هذا الخبر . اما انا فابتهج به لمعرفتي بنياته الحسنة تمام المعرفة . فلا اشك في امانته بل اشكر العناية الالهية التي قادته الى هذه البلاد ليكشف حقيقة امره (١.»

واليك الآن ما قاله المحبي عن علي باشا جنبلاط في بقية ترجمته بعد انكساره امام مراد باشا القبوجي :

« وهرب ابن جانبولاذ الى حلب ولم يقرّبها الا ليلة واحدة فوضع اهله وعياله وذخائره في قلعتها وخرج منها الى ان الجأه الهرب الى ملطيه . وبقي الوزير يتبع اعوان ابن جانبولاذ فأبادهم قتلاً بالسيف. وجاء الى حلب بالجنود فرأى قلعتها في ايدي بعض اعوان البغاة فرام محاصرتها فتحقق من فيها ان كل محصور مأخوذ فطلبوا الامان من الوزير فانزلهم بأمانه وكانوا نحو الف رجل (٢ . وكان معهم نساء ابن جانبولاذ . وكان اكابر الجماعة اربعة من رؤوس السكبانية . فلما نزلوا بادروا الى تقبيل ذيل الوزير فاشار الى النساء بالسكن في مكان معلوم وفرق

---

٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨. وفي السجل نفسه ورقة ٩٠ تجد فيها القاب شاه العجم ، وفي ورقة ١٣٢ تجد جوابه على رسالة بولس الخامس اليه المعربة اعلاه .

١) مد ٥ و١٨٥ ق .

٢) جاء سابقاً انهم خمسمائة وهو الاصح لان كاتبنا شاهد عيان .

الرجال على ارباب المناصب . وطلع الى القلعة ورأى ما بهـــا من اموال ابن جانبولاذ وتحفه العزيزة فضبط ذلك كله لبيت المال. ثم شرع يتجسّس في حلب على الاشقياء واتباعهم فقتل جملة من الاتباع . وهجم الشتـــاء ففرق العساكر في الاطراف وشتّى هو في حلب.

« واما ابن جانبولاذ فانه خرج من ملطية وسار الى الطويل العاصي في بلاد الاناضول واراد ان يتحد معه . فـــارسل اليه الطويل يقول له انت بالغت في العصيان وانا وان كنت مسمى باسم عاص لكني ما وصلت في العصيان الى رتبتك. فرحل عنه بعد ثلاثة ايام وسار الى العاصي المعروف بقرا سعيد ومعه ابن قلندر . ولما وصل الى حيث هؤلاء العصاة تلقوه وعظموه وحسّنوا فعلته مع العساكر السلطانية وارادوا ان يجعلوه عليهم رئيساً . فشرط عليهم شروطاً فما قبلوهـــا . فاطمأن تلك الليلة الى ان هجم الليل واخذ عمه حيدر وابن عمه مصطفى وابن عمه محمدا وخرج . ولم يزل سائراً حتى دخل بروسة مع الليل وتوجه الى حـاكمهـا واخبره بنفسه فتحير منه . ولما تحقق ذلك قال ما سبب وقوعك . فقال ضجرت نفسي من العصيان وها انا ذاهب الى الملك فأرسلني اليه في البحر. فأرسله عن طريق البحر فلما دخل دار السلطنة اعلم به السلطان . فقال احضروه (١ . فلما حضر اليه قال له ما سبب عصيانك . فقال ما انا عاص . وانما اجتمعت علي فرق الاشقياء، وما خلصت منهم الا بان القيتهم في فم جنودك وفررت اليك فرار المذنبين . فان عفوت فانت لذلك اهل، وان اخذت فحكمك الاقوى. فعفا عنه واعطاه حكومة طمشوار في داخل بلاد الروم ، ونجا بذلك . ولم يزل على حكومته الى ان عرض له امر اوجب قتاله لرعايا تلك الديار ولزم انه انحصر في بعض القلاع في بلاد الروم. فعُرض امره الى باب السلطنة الاحمدية فبرز الامر بقتله وعدم اخراجه من القلعة . فقتل وارسل رأسه الى باب السلطنة . وكان ذلك في حدود العشرين

---

١) ان رواية المحبي، كما ترى ، تختلف قليلاً عما جاء في رسالة السفير الانكليزي وهو اقرب منه الى الوقائع وبالتالي الى الحقيقة .

والف (١)، والله اعلم (٢).

ثالثاً: ولده واولاد اخيه ـ واعلمنا المؤرخ هامر نقلاً عن المؤرخ نعيمه الذي استقى اغلب معلوماته من الامير حسين المعني ابن فخر الدين الثاني (فع ٢٥٥): «ان ابن علي باشا جانبولاذ السوري أدخل السراي السلطانية، وتعين بعدئذ اميرالاً على الاسطول العثماني. وهو الان وزير.»

وجاء في نسبة المشايخ الجانبولاذية لطنوس الشدياق (٣ «وجعل (السلطان) مصطفى بك (٤ طبرغا في دائرته الخاصة. وسنة ١٦١١ توفي علي باشا في بلغراد وكان شجاعاً فتاكاً كريماً عادلاً حليماً وديعاً هماماً عاقلاً. فاما مصطفى بك فانه ترقى بالحرم الخاص الحكومي وصار وزيراً اول وصهر السلطان وقبودان البحر ووالي الروملي. ولما حارب السلطان احمد شاه العجم ورد مصطفى باشا في اسكيدار بالموكب الهميوني مع العساكر الكثيرة من جانب الروملي. وسنة ١٦٣٦ اتهم مصطفى باشا بقتل رجل يسمى موسى جلبي فقتل. وكان عاقلاً فصيحاً ذا شيم حميدة وآراء سديدة.

«وسنة ١٦٠٧ لما تغلب مراد باشا على علي باشا جانبولاذ في حلب وفرّ الى ملطيه كما تقدم، تشتت اقاربه. فاختفى بعض اولادهم في بلاد حلب وكلس.

«وسنة ١٦٣٠ حضر جانبولاذ بن سعيد (٥ بولده رباح من حلب الى بيروت لما بينهم وبين آل معن من الصداقة والوداد. ولما تمّ خبره قدم اليه اكابر جبل لبنان ودعوه الى الاقامة في بلادهم، فاجاب واتى معهم واقام في مزرعة الشوف، فاعتبره الامير فخر الدين حتى كان يعتمد عليه في مهمات اموره. وكان الشيخ

---

١) تبدأ في ١٦ آذار ١٦١١ م.
٢) المحبي ٣: ١٣٨ — ١٤٠.
٣) اخبار الاعيان في جبل لبنان ص ١٣٥، ١٣٦.
٤) ابن علي باشا.
٥) ابن مصطفى بن حسين شقيق علي باشا (الشدياق، ١٢٩).

ابو نادر الخازن مدبر الامير فخر الدين فاتحد مع جانبولاذ وصار بينهما محبة وثيقة (١).»

•

هذا ما وقفنا عليه من الوثائق العربية والشرقية، الخاصة بعلي باشا والي حلب، سليل آل جمبلاط العريقين في الحسب، والنسب ، والبطولة . وقد كان عند شرف محتده جامعاً كل المزايا التي تؤهله لان يكون مؤسس الدولة السورية. كان عادلاً، حازماً ، حكيماً ، كريماً ، منظماً ، باسلاً . قاد جيش عمه حسين باشا فهزم الانكشارية المحتلين حلب . ولما صرع عمه اقسم بالثأر. فمسك زمام الولاية واعلن استقلاله واستقلالها ، وجمع العساكر ونظم الدواوين وضم جزءاً من الاناضول .

ولما ركب يوسف باشا سيفا الذي فاز بوظيفة سردار العساكر العثمانية في سورية ليزيحه عنها ، لم يهب جيشه الجرار ، بل زحف عليه حتى حماة ، فدحره وشتت شمله واستدعى الى نجدته فخر الدين المعني الثاني امير الشوف بلبنان، فلباه فلحقا بالسردار حتى دمشق وحاصراها ونازلا انكشاريتها وخذلاهم . وصفا لهما الجو ، فتعاقدا على استقلال سورية ولبنان من الدولة العثمانية . ولما كان ينقصها اسطول يحمي شواطئها، واسلحة حديثة يتفوقان بها على جيش الدولة والموالين لها من الجيران، حوّلا النظر شطر الغرب المسيحي ، الطامع في الاراضي المقدسة ، فعقدا مع فرناندو الاول، غراندوق تسكانا،محالفة سياسية تجارية، تضمن لمملكتيهما الاستقلال والقوة والرفاهية . ونزلا عند شوره فسعيا للتحالف مع شاه العجم وعصاة الاناضول. على امل ان يصبحوا كتلة هائلة تقف في وجه اكبر قوة تحشدها الدولة العثمانية عليهم . ولو لم تعاجل هذه علي باشا بضربة لم يحسب لها حساباً، لقضوا عليها او قضوا وطرهم من الانسلاخ نهائياً عنها .

لم تقوَ الحملة العثمانية على عساكر علي باشا بعدّدها وعددها ، بل بخدعة حربية

---

١) راجع بقية اخبار المشايخ جانبولاذ في لبنان وانسابهم في الشدياق ١٢٩ - ١٦١ .

ضعضعت صفوفهم فانهزموا . فلم يسقط في يده ، بل جمع من فلولهم خمسة عشر الفاً وزحف بهم على الاناضول ، لينضم الى عصاته ، فيتقوى بهم ويتقووا به ، الى ان يصله مدد الشاه والغراندوق . على ان العصاة لم يفهموه ولا فهموا مصلحتهم. وكان السلطان يتودد اليه ، فاخلد الى السكينة ، واكتفى الى وقت ما بولاية الروملي.

بيد ان الفكرة التي نزعت به الى اعلان الثورة واستقلال سورية والاناضول ، وحملته على إعداد القوة لنهضتها السياسية والاقتصادية ، خلدت ذكره في تاريخ الشرق ، وخوّلته الحق بان يدوّن اسمه في رأس لائحة ابطال الوطن .

زغرتا ، في ٨ كانون الاول ١٩٣٨ .

الخوري يوسف قرألي

